خالد أمين

ليلة ظهور القرين

رواية

دار دَوّن

مكتبة بيت الحصريات
maktabbah.blogspot.com

الفصل الأول

ليلة يوم الجمعة - الثالث عشر من مايو

الحادية عشرة مساء

عندما سقط الهاتف من يدها وهي تتحدث مع أخيها عبر تطبيق الفيديو تغيرت ملامح الأخير وتبدلت مشاعر الالفة والأنس لجمود وقلق ومحاولة للتظاهر بالثبات. عادت رنا للتربع فوق الفراش بعدما التقطت الهاتف من على الأرض آملة ألا يكون قد انكسر، لم ينكسر والمكالمة لا تزال جارية، تبتسم وتنظر لوجه أخيها على الشاشة قبل أن تقول: ما بك؟

أشار إليها بأصبعه على فمه ان تصمت تماما، قبل أن يكتب لها نصيا: هناك رجل أسفل فراشك..

ارتكزت عينا رنا على العبارة، قبل أن ترفع رأسها ببطء تجاه شاشة هاتفها.. غريبة هي تلك الأحداث التي تغير من طعم الحياة بالكامل، تفاصيل صغيرة كرسالة من البنك تخبرك بإفلاسك، أو مكالمة من الطبيب أو بريد إليكتروني من مديرك يخبرك ببدء مدة الإقالة، هنا تقول لك الحياة ببساطة وهي تلملم متاعها وتستعد للرحيل: لقد تركتك تعبث بخططك، وتحيا في أحلامك، والآن حان وقت الإفاقة، خذ تلك الصفعة، وداعًا.. الآن علي الرحيل، فجأة تجد نفسك حزينًا وغاضبًا لأن الاشياء لم تسر على النحو الذي ابتغيته، جملة بسيطة، هناك رجل أسفل فراشك، قد غيرت من كل شيء، تبدلت مشاعر الاشتياق والأنس وهي تتحدث مع أخيها إلى صدمة، هنا يودي الوقت دوره ببراعة فيبطئ من مسيرته لتستوعب هي وتتحول الصدمة لفزع، يبدأ الأدرينالين في التدفق، وتدرك رنا في لحظتها الواهنة تلك وهي وحيدة في فراشها أن هناك رجلاً يختبئ أسفل الفراش، يبتلع محمود ريقه وهو في غرفته بالفندق ويفكر، هناك رجل أسفل فراشك، تلك هي أفضل عبارة استطاع أن يأتي بها، لم يكن ليستطع أن يصف لها ملامح الرجل الذي رآه أسفل الفراش، كيف يخبرها بحقيقة ما رآه؟ آه.. رنا.. هناك رجل يختبئ أسفل فراشك والدماء تغطي ملامحه

بالكامل.. كلا.. عليه أن يحاول المحافظة على رباطة جأشها، وفي الآن ذاته عليه الاتصال بالشرطة وبزوجها دون أن ينقطع اتصاله بها، عقله يفكر ويعمل كالمحموم، هذا لا بأس به، هناك دوما حل لكل معضلة، سيخرج ويذهب لردهة الفندق ويطلب من موظف الاستقبال الاتصال بالشرطة بينما هو يتحدث معها، ثم يستقل المصعد لأن الشبكة تفصل هناك لأسباب غامضة، سوف يأخذ السلالم، عليه أن يسرع، ولا بد أن بقيها هادئة وهو يفعل هذا، بأي حال من الأحوال لا يجب على الرجل اسفل الفراش إدراك حقيقة أن وجوده قد تم كشفه، ترتجف يد رنا القابضة على الهاتف. تلك هي مرتها الأولى في البقاء وحيدة في بيتها بعد زواجها، واخوها في مهمة لقضاء العمل بالإسكندرية، وها هي ذي الآن.. وحيدة وتشعر أن الزمن كله قد توقف. هذا الشعور القاسي بالعجز والوهن، تنظر بطرف عينها للساعة، الحادية عشرة ليلا، كامل لا يزال عند والدته، تتذكر اتفاقها معه في ليلة الزواج، الفرمان الذي وقعته هي وكامل. كل ليلة في الواحدة صباحا سيخبرها هاتفيا أنه يحبها. وفي تلك الرمزية وجدت هي الأمان، لو استطاعا الحفاظ على هذا الروتين للعقود القادمة من حياتهما لتمكنا من إنجاح الزيجة، تلك كانت طريقتها في مجابهة كل ما تسمعه وتقرأه على مواقع التواصل الاجتماعي بخصوص جحيم الحياة الزوجية والطلاق وخلافه، ولكن لم يخبرها أحد كيف تتصرف مع حقيقة ان هناك رجلاً أسفل الفراش. كما أن الواحده ليلا لم تأت بعد وكامل ليس هنا. قلبها ينبض بقوة حتى يكاد يقتلع نفسه ويمزق صدرها استعداذا للقفز، وجهها مبلل، تبا هذا ليس وقت البكاء، محمود سيمتلك خطة. سوف تتبعها، هي لن تستطيع التفكير او التصرف في تلك اللحظة، هناك خدر ما يسري في جسدها وشعور ما بأنها ستفقد وعيها، عليها أن تقاوم هذا الشعور أيضًا، رسالة نصية أخرى من محمود:

«سوف أذهب لردهة الفندق للاتصال بالشرطة، ابقي فوق الفراش وارفعي الهاتف لأعلى باتجاه المرآة».

لماذا المرآة؟.. آه.. يريد أن يرى انعكاس الأرضية أسفل الفراش، يرسل لها

نصًا آخر: «أرجوكِ ابقي مكانك وحاولي الحفاظ على رباطة جأشك، فقط امتثلي لما سأقوله وسنكون بخير».

لم يقل لها ستكونين بخير، تعمد نون الجماعة ليشعرها أنه معها، لكنه ليس معها، وهي وحيدة كالجرذان في بيتها الجديد، تراه على الشاشة يسير للأمام، يفتح باب الغرفة، ترى ردهة طويلة وغرفًا متراصة، الشاشة تتحرك يمينًا ويسارًا بينما أخوها يتحرك بسرعة خارقة محاولا الوصول للسلم، هي لن تفكر في واقعها الحالي، لو فعلت هذا لجُنّت وظلت تصرخ حتى الموت، هي لن تفكر في غرفة نومها وهذا القابع أسفل الفراش، تصبّ جامّ تركيزها كله على الشاشة، تنظر للغرف في الردهة، كل هؤلاء الأوغاد والملاعين النائمين في هدوء، سوف تفعل أي شيء من أجل سلامهم النفسي في تلك اللحظة، هنا تنتابها فكرة، لماذا لا يوقظ محمود أي واحد منهم ويطلب منه الاتصال بالشرطة بدلا من محاولة الوصول لموظف الاستقبال في الفندق؟ ولماذا لم يتصل محمود بخدمة الغرف من غرفته؟ آه.. هذا سيتغرق وقتًا، هنا كأنه قد سمع أفكارها، تجده يتوقف ويقرع باب إحدى الغرف، تدمع هي بشدة، أخوها يفكر فيما تفكر هي فيه في نفس اللحظة، لو خرجت حية من تلك الليلة فستلاصقه للأبد وليحترق المنطق إن حاول الاعتراض، يواصل محمود طرق الأبواب دون أن يجيبه أحد، يجرب غرفة تلو الأخرى قبل أن ينفتح له أحد الأبواب، بسرعة يتجه إصبع رنا لتقلل من مدى الصوت على هاتفها، ليتها وضعت سماعتي الأذن، لكنها تقضي دهورًا باحثة عنها دون جدوى، يرتجف أصبعها وهي تبحث بعينيها عن كيفية خفض الصوت، لقد أصبح كل شيء معقدًا وسط هلعها الحالي، ينفتح باب الغرفة ويظهر وجه رجل قانط لمحمود على الشاشة، سوف يتحدثان الآن، ولسوف يسمعها الرجل، سوف يسمعها ويهجم عليها ليمزقها إربًا، تتخيل ملامحه وهو يفعل هذا، ملامح شيطانية وابتسامة ماجنة، تكاد تفرغ جوفها إثر خيالها الصاخب وهي تحاول خفض الصوت، يفتح الرجل فمه في نفس اللحظة التي تضغط هي بجنون وتخفض الصوت تمامًا، ترى فم الرجل يتحرك، محمود يقول له شيئًا وهو يجيبه فيما يبدو، تبًا.. ليتها تستطيع سماعهما، كيف يقرأون الشفاه؟ الحقيقة هي

بحاجة لسماع أي صوت، هذا الصمت المطبق يحطم أعصابها، خصوصا بعدما انتبهت حواسها كلها، تكاد تقسم إنها تسمع صوت الهواء والحشرات الآن، وأنفاس الرجل المنتظمة من أسفل الفراش، أم أن هذا من وحي خيالها؟ ما الذي ينتظره؟ منذ متى وهو هنا؟ كيف استطاع الدخول؟ أتلك ليلته الأولى معها أم أنه كان معها ليلة أمس يراقبها وهي نائمة؟ ترتجف يداها والقشعريرة تغزو جسدها، هي لن تفكر في شيء وستركز فقط مع شاشة الهاتف كما قال لها أخوها، وسوف تخرج من هذا الكابوس الحالي، يدير محمود يده وينظر لشاشة الهاتف كل ثانيتين ليطمئن عليها وهو يتحدث مع الرجل، ترى الرجل يضع هاتفه على أذنه ويتحدث بجدية، لقد اتصل بالشرطة وبكامل، حمدًا لله.. سوف يأتون، سوف تظل هنا، ماذا لو استغرقوا وقتًا طويلا للوصول؟ كامل لن يستغرق وقتا طويلا، سوف يأتي مسرعًا لإنقاذها، عليها أن تؤمن بهذا، تغمض عينيها محاولةً التحكم بدقات قلبها، قبل أن تبدأ في الشهيق وهي تواجه صعوبةً في التنفس، يلمح محمود ما يحدث فيرسل لها «لا تجزعي.. أنا هنا.. لقد اتصلنا بالشرطة وكامل وهم في الطريق إليك»، تومئ له برأسها باكية وهي تكتم رغبةً عارمةً في الصراخ، الصمت يرقص حول أذنيها بهدوء وابتسامة خبيثة، قلبها يدق بقوة مؤلمة، تنميلة في جسدها، لم تكن لتتوقع أن الخوف قادر على إحداث كل تلك التغييرات بأجسادنا، تأخذ شهيقًا طويلا صامتًا محاولة تنظيم أنفاسها، محمود يتابعها عبر الهاتف بينما الرجل في الغرفة يحاول معاودة الاتصال برقم كامل الذي أعطاه إياه محمود دون جدوى، قبل أن يقول: «لا يزال غير متاح، يطلق محمود سبّة، لم يستطع أحد التواصل مع كامل ولا التحدث معه منذ ليلة الزواج، آه.. هو عند والدته.. فليتصلوا بها، ليتهم واقفوا على اقتراحها بالمسكن القريب منها، حينئذ على الأقل سيكون كامل قريبًا من رنا في تلك اللحظة، تنظر الأخيرة لانعكاسها في المرآة، أيراها الرجل في الانعكاس أيضًا؟ تمسح دموعها وهي تفكر.

المرآة!

تتذكر كل ما مرت هي به منذ زواجها، شعورها أن هناك أحدًا يراقبهما وهما نائمان، تتذكر المرات التي أيقظت فيها كامل مذعورة، ثم أتت تلك الليلة، استيقظت قرابة الثالثة صباحًا ورأته، رأت انعكاسًا لظل أحدهم يجلس جوارهما على الفراش وينظر إليهما، هامسة أيقظت كامل وهي تبكي وتوسلت إليه أن يخرجا من الغرفة، ظلت بين أحضانه حتى الصباح وهي تؤكد له أن ما حدث لم يكن وهمًا، ظل يحاول تهدئتها وإرجاع الأمر للهلاوس والخِمل النفسي لحقيقة أنها قد انتقلت من بيت أهلها لبيت الزواج، فاستشاطت غاضبة وهمست بخوف كي لا يسمعهما أيًا كان من بالغرفة:

- أنت تعرفني جيدًا.. عندما أقول لك إني قد رأيت شيئًا كهذا فأنا رأيته حقًا، لم أكن أتوهم.

هز كامل رأسه وهو يفكر، رنا لم تكن شخصية هيستيرية، وبإمكان الكثيرين اتهامها بالعملية، مط شفتيه ولم يجد ما يعلق به، هنا كالعادة عند هذا التوقيت يتعالى صوت أقدام الأطفال وهم يجرون في الشقة العلوية، يزفر كامل في غضب ويهتف:

- لا أصدق هذا.. كل يوم عند الفجر حتى الصباح يعدون كأن هناك ماراثون بتلك الشقة اللعينة، لم أعد أتحمل كل تلك الضوضاء.

تتنهد رنا وتنظر إليه مطالبة إياه أن يركز معها في مشكلتهما الحالية، فينظر إليها ويحتضنها، بعدما مرّ اليوم وبحث هو في كل ركن بالشقة وغاب لوهلة، سمعت هي فيها جلبة ما ففزعت، قبل أن يعود لها مبتسمًا في خجلٍ ويعتذر عن كسر المزهرية في غرفتهما وهو يبحث قبل أن يقول:

- لا يوجد أحد.

والدتها قالت لها كلامًا كثيرًا عن الأعمال والحسد، لكنها لم تهدأ، وظلا ينامان عدة أيام خارج الغرفة حتى استطاع إقناعها بالعودة، حدس المرأة بداخلها ظل يصرخ غضبًا ويركل الأرض بقدميه قبل أن يقول بوجه محمرّ

وهو عاقدٌ ساعديه في وسطه:

- أنت محقة.. هناك شيء ما خاطئ يحدث.. عليك اكتشافه..

ومتبعة حدسها لجأت رنا للصديق الوحيد الذي لن يصدر ضدك أحكامًا أو ينتقدك لمخاوفك، ولسوف يحتويك مبتسمًا؛ للشبكة الإلكترونية، بحثت بكلمات: شخص في المرآة يراقب نائمًا، فلم تجد شيئًا، أضافت كلمة زواج فعرض عليها محرك البحث كلمة: متزوجين حديثًا، وافقت على الاقتراح فقط لتهل عليها نتائج بحث كثيرة كرجال مبيعات يتجهون صوب مصرف، وبعد بحث طويل كان هذا ما توصلت هي إليه:

«القرين يظهر للمتزوجين حديثًا، خصوصًا هؤلاء الذين يحبون التباهي أمام المرآة»، وهي تعلم أنها هي وزوجها ليسا برآء من تلك التهمة، ولو أعجب القرين بما يراه، فربما يقرر البقاء، ويحاول الخروج من عالمه والبقاء هنا، حقيقة بسيطة لم تغفلها هي، أن القرين مسخ شيطاني حتى لو كان يشبهها شكلًا، الأسطورة تقول إن لكل واحد منا قرينًا في العالم الآخر، ونواياه لن تكون مسالمة.

قرأت الكثير عن القرين وعن أصوله، وكيف أنه يحب التجول في المقابر عندما يأتي لعالمنا، ترتجف رنا فوق فراشها، أتلك هي قرينتها أسفل الفراش؟ شيء ما بداخلها جعلها تبحث عن القرين من خلال الشبكة الإلكترونية كأن أحدهم همس بالكلمة في أذنها وهي نائمة، لا تعلم لماذا لم تستطع هي التخلص من هذا الشعور، كأنها جزء من مسرحية تتحرك دون إرادتها، محمود رأى شخصًا، ولا يوجد داعٍ كي يكون متأكدًا من كونه رجلًا، كامل أين أنت؟ هي لم تخبره بموضوع القرين هذا لأنه ببساطة لم يكن ليصدقها، كأنه يلعب دور الزوج المشكك الأبله في القصص المصورة، ليته استمع إليها، ليته أخذها على محمل الجد، تسمع في تلك اللحظة صوت أقدام الأطفال وهم يلهون بالشقة العلوية، كل تلك الجلبة، ينقبض قلبها في صدرها وهي تتذكر زوجة حارس العقار، تقول لها بتشكك عندما اشتكت لها الضوضاء: ولكن لا يوجد أحد في الشقة الأعلى منك، هي

مهجورة منذ أعوام، هنا قررت رنا أن هناك شيئًا خاطئًا ومريبًا في هذه البناية، تعود بأفكارها لكامل، ليته صدّقها ولم يستخف بمخاوفها، لم تكن في موقفها الحالي لو كان فعل هذا، شعرت بغضب عارم تجاهه.. هذا الأبله، شعرت برغبة عارمة في رؤيته في الآن ذاته، يعيد محمود الهاتف للرجل وهو يسبّ، والدة كامل لم تره منذ الزواج، أين هذا الوغد؟ لم يمر أسبوعان على زواجهما ويكذب على زوجته بشأن مكان خروجه، ينظر محمود للشاشة ويلمح ظلاً يتحرك من أسفل الفراش، يزفر بقوة، تلك خيالات، عليه أن يحافظ هو على رباطة جأشه، كامل ليس متاخًا الآن، عليه أن يتصرف هو، الشرطة تستغرق نحو خمسة عشر دقيقة لو كانوا ملتزمين بما قالوه له، لماذا لا يمتلك أحد رقم حارس العقار؟ تبًا لتلك الزيجة السريعة التي تمت دون أي تخطيط! ها هي نتائج التهور، يسبّ محمود قبل أن يحاول رسم ملامح هادئة على وجهه وهو ينظر للهاتف قبل أن يكتب لها:

«حسنًا.. حاولي أن تتحركي بهدوء، سنحاول فقط أن نخرجك من الشقة، ولكي نستطيع فعل هذا علينا إخراجك من الغرفة، تحركي ببطء يا حبيبتي.. هيّا».

«لن أستطيع الحراك يا محمود، أنا أشعر بخدر كامل بجسدي من الرعب».

«أعلم هذا.. لكنك قادرة على فعلها، أنت أختي الكبرى يا حمقاء، لقد كنتِ تزجرين عصابات المدرسة عندما كانوا يحاولون التعرض لي، أتتذكرين؟ هيا يا فتاة، أنت قادرة على فعلها».

تبتسم رنا وسط دموعها قبل أن تومئ له برأسها، تمدّ يدها ببطء، يشير لها هو أين تضعها، في الأغلب مبعدًا إياها عن موضع القرين أسفل الفراش، تنتفض رنا للفكرة، لكنها تواصل التحرك، القرار لم يكن سهلاً، لكنها استطاعت أخيرًا التخلص من الشلل المفاجئ الذي أصابها، وها هي ذي تتحرك، لن تقف للحظة لأنها لو فعلت فسوف تنهار وتعود للخوف، سوف تصرخ وترجو القرين أن يقتلها بدلًا من هذا الانتظار المريع، هذا لو لم

تقتلها السكتة القلبية أولا، تتحرك يدها وتستند على ملاءة الفراش، يدها تنزلق ببطء من فوق الفراش وتلامس قدمها الأرض الباردة.

تغمض عينيها وهي تتخيل اليد تتحرك صوب قدمها من أسفل الفراش، تقول لنفسها: توقفي عن تلك الخيالات حالا أرجوك.

تلامس قدمها الأخرى الأرضية، يرفع محمود يديه مهللا في صمت ويشير لها بالتحرك للأمام، تحاول رنا الوقوف آملة أن تتحملها ركبتاها، وفور أن تجد نفسها واقفة يرسل لها محمود: «أرجوكِ لا تجري.. فقط سيري ببطء صوب الباب»، ويكمل في عقله: لا نريد لكائن من كان أن يطاردك.. أرجوكِ لا تجري.

تسير الفتاة بخُطوات مترنحة صوب الباب، تتجاهل النظر للمرآة، سوف تعكس اللعينة ما يوجد أسفل الفراش في تلك اللحظة، تسير ببطء والعرق ينهمر على عينيها فيضلل رؤيتها، ترفع يدها وتسمح كلتا عينيها وجبينها، تمد يدها وتلامس مقبض الباب المعدني، تغمض عينيها وهي تديره ببطء، سيخرج الآن، سيخرج من أسفل الفراش ويفتك بها، ينفتح الباب، لم تسعد من قبل لرؤية صالة شقتها كما سعدت في تلك اللحظة، باب الشقة ينظر لها مبتسمًا كوالدٍ حنون عائد بعد غربة، هنا تفقد رنا أعصابها، لقد تحمل جهازها العصبي قدر استطاعته قبل أن يعلن أنه غير مسئول عما سيحدث بعد الآن، تعدو رنا وهي تصرخ صوب باب الشقة، تسمع أقدامه وهو يعدو وراءها، أم أن هذا من وحي خيالها؟ لن تنظر للوراء للتأكد في كل الأحوال، لو نظرتْ للخلف ورأيتْ ما يطاردك فسوف تسقط أرضًا باكيًا، تلك قاعدة لن يجرؤ أحد أبدًا على خرقها، تعدو رنا بينما محمود يصيح معترضًا ويضع يديه فوق رأسه، الشاشة تهتز، هو يكاد لا يرى شيئًا، ثم ينقطع الاتصال بالكامل، يحاول بجنون معاودة الاتصال بها، تصل رنا لباب الشقة، تشعر به يقترب من خلفها، بعد قليل سوف تشعر بأنفاسه على عنقها، عليها الخروج من تلك الشقة اللعينة، تدير مقبض الباب بقوة فلا ينفتح، تصرخ: المفاااااتيح، وكأنما قد سمعتها الأخيرة، تولج في الباب ويدير أحد ما المقبض، قبل أن ينفتح الباب ليظهر لها وجه كامل زوجها، ترتمي في

حضنه باكية، وهي تصرخ وتتمتم بكلام غير مفهوم، يهدئها وهو محتضنها قبل أن تفقد هي وعيها بين ذراعيه.

تفتح رنا عينيها لتجد أنها في غرفة نومها، كامل يرقد جوارها على الفراش ويحتضنها في رفق، وجهه مشدود بشكل غريب، تهب واقفة وتكاد تصرخ مرة أخرى، هي لا تصدق هذا، لقد عادت لنقطة البداية، أين الشرطة؟ أين محمود؟ كم من الوقت غابت عن الوعي؟!

تنظر إلى الساعة، لقد فقدت وعيها لدقائق معدودة فحسب، تنظر إليه بعينين متوسلتين وتضع أصبعها على فمها راجية إياه ألا يتحدث، قبل أن تبحث عن هاتفها، عليها أن تكتب له أن هناك أحدًا أسفل الفراش، ينظر لها كامل وهي تدور كالمحمومة حول نفسها فوق الفراش، قبل أن تتوقف باكية وترتمي في حضنه وهي تهتف: أنا مرهقة، ثم تهمس بعدها في أذنه: هناك شخص ما أسفل الفراش.

ينظر لها كامل في صمت، قبل أن يلتفت وينحني بنصفه للأسفل، تصرخ هي به ألا يفعل هذا، يعود إليها قبل أن يقول بصوت مبحوح: لا يوجد أحد أسفل الفراش.

تلك البحة اللعينة في صوته، تغيرات ما بعد الزواج تلك، تنظر إليه في غضب واستنكار، حتى الآن لن يصدقها! حمدًا لله أن محمود قد رآه هذه المرة، ببطء وخوف تحاول هي إلقاء نظرة لكنها تفشل، يمد كامل يده ويجذبها برفق لترى الفراغ أسفل الفراش، تقول وهي محدقة: لقد تحرك، أنا أؤكد لك، لا بُدّ أنه خرج ليطاردني عندما كنت أعدو صوب باب الشقة.

- وأين هو الآن؟

باكية تهتف رنا: لا أعلم يا كامل.. لكننا لسنا بأمان هنا.. صدقني نحن لسنا بأمان.

وترتمي في حضنه مرة أخرى بقوة وهي تكرر العبارة، يحتضنها هو برفق، وتشعر بيديه حول ظهرها، تزيد من ضغط جسدها على جسده وهي

تغمض عينيها في أمان، لن يؤذيها شيء وهي في حضن زوجها، تفتح رنا عينيها، دموعها قد جفت نوعًا ما، هنا تلمح رنا انعكاس جسد زوجها مُلقى بالبانيو الخاص بحمامهما الصغير الملحق بغرفة النوم، الدماء تغطي أكثر ملامحه، لكنها ميزته بوضوح، وانتقلت بعينيها المرتاعتين لترى انعكاس هذا الشيء الذي يحتضنها في المرآة.

***

هناك رجل أسفل فراشك.

***

كيف يخبرها أن الدماء تغطي ملامحه؟ يريدها أن تحافظ على رباطة جأشها.

***

لم يرَ أحد كامل منذ الزواج، هو ليس عند والدته.

***

ولو رأى القرين ما يعجبه فهو يقرر البقاء.

***

صوته المبحوح اللعين.. تغيرات ما بعد الزواج تلك.

***

تسمع جلبة قبل أن يعود كامل بعدما انتهى من رحلة بحثه ويقول لها بخجل: لقد كسرت المزهرية.

***

لقد وجد كامل القرين وهو يبحث في الشقة، وما عاد إليها لم يكن زوجها، انسابت الحقيقة بقوة لعقل رنا وهي في أحضانه، لم يكن قرينها هي من

يراقبهما وهما نائمان، لقد كان قرين زوجها، وقد قتل زوجها بالفعل وأخذ مكانه، لقد كانت تحيا وتنام كل تلك الأيام مع قرين زوجها بينما جثة الأخير تقبع أسفل فراشهما.

وهي الآن في أحضان هذا القرين، تشعر بأنفاسه على وجهها وذراعيه حول جسدها.

***

ترتجف رنا وذراعاه يحيطان بها، تجد نفسها تفكر في تفاصيل ما كان لها أن تخطر ببالها في تلك اللحظة.

أين كان يذهب عندما يخرج؟

تتذكر ما قرأته على الشبكة الإلكترونية، كيف أن أول ما يفعله القرين عندما يأتي لعالمنا هو التجول في المقابر، وكيف أن تلك عادة محببة إليه.

غريبة هي تلك الحقائق التي تغير من مجرى حياتك للأبد عندما تعرفها، خذ مثلا رنا في تلك اللحظة، وكيف تغيرت حياتها بعدما انسابت الحقيقة إليها، زوجها هو القرين وهي بين أحضانه في تلك اللحظة، يتعالى صوت لهو الأطفال في الشقة العلوية الخالية، وتغمض رنا عينيها في ألم.

لا تعلم متى ولا كيف، لكنها وجدت نفسها تجري وتفتح الشرفة وتصرخ، كامل يعدو وراءها تلك المرة، يخرج جارها من الشقة المجاورة، رجل قصير القامة بعينين حزينتين، لطالما سخرت منه هي وكامل في بداية معيشتهما بالبناية، رجل دومًا مرتبك وخجول ويحيا وحيدًا، تنظر إليه بعينين مستغيثتين وتصرخ: أرجوك ساعدني! زوجي لم يعد زوجي.

ينظر الرجل القصير إليها بارتباك وهو يعدل العوينات على أنفه، تواصل هي الصراخ.

***

يتوقف محمود بسيارته أمام البناية التي تقطن بها أخته، ويخرج ليعدو

من السيارة كالمحموم، يرى سيارات الشرطة والإسعاف كالنذير قابعة أمام مدخل البناية، ويرى رجلي شرطة يحيطان بأخته وهما يقودانها للخارج بينما هي تبكي وتتوسل إليهما أن يتركاها لشأنها، تبدو كالمجاذيب في تلك اللحظة، تبكي وتضحك في الآن ذاته، لقد تمكنت الهيستيريا منها تمامًا وأتلفت عقلها، تراه بعينيها الزائغتين فتصرخ متوسلة محاولة الوصول إليه، يكبّلها رجال الشرطة ويستشيط محمود غضبًا لرؤية أيديهم حول جسدها بهذا الشكل، ويصيح: اتركوها لشأنها، جواره يقف حارس العقار يبسمل ويحوقل، يسمعه محمود يقول: لقد قتلت زوجها. يكاد محمود يلتفت ليلكم الرجل لكنه يتمالك أعصابه، هو لا يصدق ما يحدث، إنهم يقبضون على أخته ويتهمونها بالقتل، الرجل أسفل الفراش كان كامل طيلة هذا الوقت! يسمعها تصيح وهم يزجون بها داخل سيارة «البوكس»: لم أقتله.. القرين قتله.. قرينه قتله. ويرى رجال الإسعاف يحملون محفة عليها جسد بشري مغطى بملاءة، ملاءة ملوثة بالكثير من الدماء، أهذا جسد كامل؟

ما هذا الهراء؟ ينظر إليها محمود غير مصدق لكل ما يحدث، منذ أسابيع كان يرقص مرحًا في فرح أخته، والآن هي متهمة بقتل زوجها، وتتحدث عن مسخٍ ما شيطاني، لن تتحمل والدته صدمة كل ما يحدث الآن، وهي لا تمتلك سواهما بعد وفاة والده، هما كل عائلتها حرفيًا، يبتلع محمود ريقه بصعوبة وهو يرى سيارة الشرطة ترحل مبتعدة وأخته على متنها، لقد استغرقه الأمر ساعة وأربعين دقيقة للوصول إليهم من الإسكندرية، قاد بسرعة جنونية كادت تودي بحياته هو شخصيًا، الشرطة قد تأخرت فيما يبدو حتى وصلوا، يتخيل رنا في الشقة وحيدة مع الجثة تتخيل هذا القرين الوهمي، ولكن كلا، من المستحيل أن تكون قد قتلت كامل، هناك شيء ما خاطئ يحدث، وعليه هو فهمه، لا بد أن يبرّئ أخته وسيفعل كل شيء من أجل هذا، يسير محمود صوب حارس العقار، يلمح بطرف عينيه أمين شرطة يتجه للأخير ليبدأ الاستجواب، يقول محمود مسرعًا للحارس وهو يدس رزمة نقود في يده آملا ألا يراه أمين الشرطة: أيوجد أي شيء

رأيته؟ أي شيء يساعد في توضيح ما حدث؟

ينظر حارس العقار لمحمود في تردد، يفتح فمه كأنه على وشك قول ما، ولكن أمين الشرطة يصل ويتحدث معه قبل أن يسير معه مبتعدًا، ينظر إليهما محمود قبل أن يلتفت لسيارته وبابها المفتوح كأنه يدعوه للدخول والجلوس والتفكير في كل ما حدث، يمتثل محمود لدعوة سيارته ويجلس بداخلها، يدير المقود بعدما سأل أحد الأمناء عن وجهة سيارة الشرطة لأي قسم، يدير المقود وهو يفكر، سيتصل بمحامٍ ويذهبان للقسم، ستكون ليلة سوداء وطويلة، لكنه لن يهدأ له بال حتى يخرجها من القسم في تلك الليلة، هي لن تتحمل قضاء ليلتها في زنزانة، يزيد محمود من سرعة سيارته ويغمغم: فقط تمالكي رباطة جأشك يا رنا. يدير المقود، ويلمح في مرآة السيارة انعكاس كامل في المقعد الخلفي، ولكن كامل كان جثة صريعة على المحفة ينقلونها لسيارة الإسعاف منذ دقائق، القرين.. أخته كانت محقة.. يعتدل كامل في المقعد الخلفي، يصيح محمود: يا إلهي الرحيم! ومن بعيد نسمع صوت المكابح قبل أن نرى السيارة وهي تنقلب حول نفسها عدة مرات، وعلى انعكاس زجاج المرآة الأمامية نرى جثة محمود بعدما التوى عنقه، نرى الزجاج في حدقة عينيه وهو يحدق بالفراغ.

***

يرفع المتشرد النائم على الرصيف رأسه بهدوء، لقد أيقظته الضوضاء، يرى السيارة المنقلبة أمامه، ويسمع أناسًا كثيرين قادمين من على بعد، يميل برأسه للأمام ويرى جسد السائق، لقد التوى عنقه بينما هناك الكثير من الزجاج بعينيه ووجهه، هنا ينفتح الباب الخلفي، محدثًا ضوضاء خفيفة، ويعتدل راكب آخر من السيارة، ينفض الزجاج من على جسده ويفرد قامته، إنه طويل بحق، كذا يفكر المتشرد قبل أن يصيح: أنت بخير يا رجل؟ يلتفت الرجل وينظر للمتشرد، فيفتح الأخير فمه وتسارع العصارة الحامضة في جوفه قبل أن يهتف: يا إلهي!

وفيما بعد لم يبالِ أحدٌ بما قاله المتشرد أو يصدّق شهادته رغم إصراره على أن هناك راكبًا آخر كان في السيارة، ولم يصدق أحد الوصف الذي أعطاه المتشرد لعيني الراكب الآخر وأظافر يده، لقد كان يصف رجلَ الغاب بشكل ما، مجرد ترهات مشترد عجوز.

في غرفتها داخل المصحّة النفسية تجلس رنا متربعة حول نفسها، لقد مرت شهور عدة على تلك الليلة، ولم تتوقف هي أبدًا عن البكاء ولا الصراخ، وظلت محتفظة بحكايتها عن حقيقة ما حدث تلك الليلة، وجدتها المحكمة مذنبة بقتل زوجها، وقرروا عرضها على المصحة النفسية في بادئ الأمر قبل اتخاذ قرار العقوبة، سواء أكان إعدامًا أم الحبس في المصحة، وها هي ذي الآن تجلس عاقدة ساعديها حول نفسها وهي تميل للأمام والوراء مرارًا وتكرارًا.

القشه التي قصمت ظهر البعير هي موت أخيها في نفس الليلة، والنوبة القلبية التي أودت بحياة والدتها بعد هذا، منذ فترة كانت رنا عروسًا سعيدة في حياتها بعدما تزوجت ممن تحب وشعرت أنها امتلكت العالم بأكمله، والآن هي مجذوبة في مصحة تنتظر حكم إعدامها بعد موت والدتها وأخيها وزوجها، لا يصدقها أحد والجميع يراها قاتلة مخبولة، تغمض رنا عينيها وتواصل البكاء عندما تسمع صوت الممرض غير المبالي يقول: زيارة.

في غرفة الزيارات تجلس رنا أمام الرجل قصير القامة أصلع الرأس، هذا الوجه الشاحب والعينان الحزينتان، هي تتذكره جيدًا، جارها الذي طلبت منه المساعدة، يميل برأسه للأمام ويقول بتردد:

- عفوًا.. آه.. لقد أخذت وقتًا طويلاً حتى أستطيع رؤيتك، لكن إجراءات الزيارة كانت معقدة للغاية، اسمي هشام، آه.. عفوًا لكوني مرتبك كهذا.. لكني أعتقد أني قادر على مساعدتك.. في إثبات براءتك.. أعني...

قبل أن يتنهد الرجل ويواصل الحديث:

- لقد أخذوا شهادتي.. فيما حدث تلك الليلة.. الحقيقة أني لم أرَ سواكِ في

الشرفة حينذاك، لكني لم أستطع إخراج ما حدث من ذهني، لا أعلم لمَ.. لكني أعرفك جيدًا.. أقصد.. آه.. حسنًا ربما أكون لا أعرفك حقًا، لكني أعرف أنك لست بقاتلة.. لا تسأليني لماذا، أنا فقط أمتلك هذا اليقين.. آه.. إحم.. لقد قالوا لي إنك لم تتحدثي بحرف منذ المحاكمة.. ولكني أريدك أن تعلمي أننا سوف نبذل قصارى جهدنا بالخارج لإثبات براءتك، ولسوف نتمكن من هذا قريبًا جدًا، فقط حافظي على رباطة جأشك.

حافظي على رباطة جأشك، لشدَ ما أصبحت تكره هذه الكلمة، هنا تقول هي بصوت مرهق:

- من أنتم؟

يرفع الرجل حاجبيه، لقد تحدثت أخيرًا، يقول لها في لهفة:

- هناك كاتبة.. قصصية تكتب في الماورائيات، لديها خبرة في مثل تلك الأمور.. أنا أعرفها بشكل ما، وسوف أطلب مساعدتها في قضيتك، وهي لديها محقق صديق لها، ليس ظابط شرطة لكنه محقق تأمين أو شيء من هذا القبيل، آه.. الأمر يبدو معقّدًا لكنهم حقا قادرون على مساعدتك، على ما أعتقد.

تتنهد رنا، كاتبة ومحقق تأمين وجار مرتبك خجول، منذ شهور كانت تعدّ لحفل زفافها، والآن هي في هذا الكابوس السيريالي، لقد فقدت والدتها، أخاها، زوجها، بسبب هذا الشيء اللعين، وسوف تموت موصومة بالعار دون أن يصدقها أحد، أملها الوحيد في الحياة هو مجموعة من الغرباء لا تعرفهم، لكنها مستعدة للمجازفة، للتمسك بأي خيط يساعدها على النجاة، في نجاتها بشكل ما إحباط لمخططات هذا الشيطان الذي أفسد حياتها، تتذكر وهي طفلة، تحمي أخاها الصغير في المدرسة، تنظر لهشام وتقول:

- أنا لم أقتل زوجي. وتكرر رنا العبارة مرارًا وتكرارًا بشرود.

***

الفصل الثاني

ليلة يوم الجمعة - الثالث عشر من مايو

يعود هشام لشقته بعد رؤية جارته وهي تستغيث في رعب، يداه ترتجفان من الانفعال والمشاعر المختلطة بداخله، يبتلع ريقه ويجلس على مقعده، يتجاهل انعكاسه في المرآة، ينظر للهاتف.

***

تفتح الكاتبة «ناردين الصباغ» عينيها ببطء وهي مستلقية في فراشها، يوم آخر لا تعلم لِمَ عليها الاستيقاظ فيه وتقضيته، تتثاءب وتتنهد في كسل، شعور اللاطاقة هذا بعد الاستيقاظ، هي حقًا تفضل البقاء في الفراش، آن أوان اللحظة التي تكرهها بشدة، سوف تنظر في ساعتها لتفقّد الوقت، هذا المُخادع اللعين الذي سيُخرج لسانه لها ويهتف أنها السادسة أو السابعة مساء، وأنها فشلت في تنظيم نومها، وعليها قضاء ليلة أخرى وحيدة تتناقش مع الأرق، تنظر في ساعتها، السادسة والنصف مساءً، تبًا.. كل يوم تخلد ناردين للنوم وهي عازمة القرار، تنظر لنفسها في المرآة وتلوّح بأصبعها قبل أن تقول: غدًا سوف أستيقظ مبكرًا ولسوف أعدل من نظام نومي.

طبعًا ينزوي أصبعها الملوّح في خجل وقت السادسة صباحًا وهي ساهرة تطالع رواية أو فيلمًا ما، ولكن الوقت ينساب بحق عندما تبدأ الفتاة في مطالعة شيء ما أو الاستماع للموسيقى، ترحل بخيالها الجم للعوالم المتداخلة الخاصه بالفن فتنسى من هي، فقط ليلدغها الواقع في لحظة استيقاظها تلك، تغمغم ناردين وهي في الفراش: تبًا تبًا تبًا.

قبل أن تفكر: لماذا دومًا ثلاث مرات؟ وتضيف: تبًا.

تعتدل بعدها ببطء وتنظر في الساعة مرة أخرى، رائع، لقد انقضت نصف ساعة وهي في حالة اللاثبات لاستيقاظ تلك، تعتدل وتطأ قدماها الأرض وهي تتثاءب، تستحم وتُعدّ لنفسها قدحًا من الكباتشينو، وتقف أمام

أسطوانات الموسيقى في صالة شقتها حائرة، تغمغم لنفسها وهي تخاطب أسماء الموسيقيين على الأسطوانات: مممم.. كلا.. لا أشعر بك يا جيري اليوم، ولا أنت يا مكريري ربما غدًا.. آه.. زيمر وموريكون، مرحبًا بكم يا أولاد، لكني لست لك في مزاج ملائم، أريد شيئًا.. مرعبًا.. آه.. ماركو بلترامي، بالطبع.

تمتد يدها وتلتقط أسطوانة كتب عليها «الصرخة»، وبعد دقائق تنبعث موسيقى تعتبر المادة الخام للفزع، تبتسم ناردين في استجمام وهي تستمع للموسيقى، الحقيقة أن موسيقى الرعب تعمل في عقل وقلب ناردين ما تفعله أغاني عبد الحليم وأم كلثوم للباقي، جوارها على أحد الأرفف نرى بعضًا من رواياتها التي تم نشرها والتي حققت نجاحات باهرة جعلت اسمها يزدهر ككاتبة قصص رعب منذ أعوام: «ليلة في العالم الآخر»، «الذئاب»، «كابوس بلا نهاية»، «أنياب ومخالب»، «إنهم يأتون ليلاً»، «عودة الشيء».

تنتهي ناردين من قدح الكابتشينو وتدخل غرفة المكتب، تنظر للكتب المتراصة أمامها وهي تفكر: ماذا أقرأ اليوم؟ ماذا أقرأ اليوم؟ أريد شيئًا قديمًا تدور أحداثه في قرية ما في الريف الإنجليزي، أنا في مزاج مستعد لهذا بشدة، آه.. لم لا.. «يوم ابن آوى».

تتناول يدها الرواية وتعود للصالة، الحقيقة أن الرواية ليست رعبًا على الإطلاق، لكنها تحب روايات الإثارة والتشويق بنفس درجة حبها للرعب، أو كما تقول هي في ندواتها دومًا: لا بأس دومًا ببعض الغموض، لو تم توظيفه بشكل صحيح.

تمارس ناردين تمارينها الرياضية قبل أن تتربع فوق الأريكة وتمرر عينيها على صفحات الرواية، بعد وهلة تزفر الفتاة وتلقي بالرواية بعيدًا، تقول لنفسها: آه.. رائع.. الآن سوف تنتابك نوبة من نوبات كثرة التفكير الخاصة بك، حسنًا حسنًا، أنت لم تكتبي شيئًا منذ عام كامل، وهذا يثير جنونك.

تصمت ناردين وتتنهد، ولا تنظر للإطار المحتوي على صورة عائلتها في

ركن الكومود، ليس هذا وقت التفكير بوالديها، ولا بأخيها الذي توفي بجرعة إدمان زائدة وهو مراهق، ووالدها الذي رحل بعد هذا، لن تفكر في لحظة احتضار والدتها، ولا في الأيام التي قضتها هي محاولة فهم منطق الواقع الذي جعل أخاها يدمن ويتوفى دون سبب واضح، أو الذي دفع بوالدها للرحيل والزواج وتكوين عائلة جديدة، لن تفكر بخيالها الذي يمكنها دومًا من تقمص وجهات نظر الآخرين من الناحية العاطفية، لن تفكر عندما وضعت نفسها في عقل والدتها وشعرت بكل آلامها وعجزها في لحظة الاحتضار، لقد مرت ناردين بالكثير من الأشياء في حياتها، لكنها نجت، وكان الفن دومًا هو ملاذها، كل تلك الروايات والأفلام والمقطوعات الموسيقية تنتظرها بأذرع مفتوحة وابتسامة واسعة، تعالي يا صغيرتي وكفي عن البكاء، تحتضنهم ناردين ويتحول كل شيء لنور متألق، لم يعد هناك ظلام، الظلام يتواجد مع الواقع فحسب، هي الآن أليس في بلاد العجائب، لم يكن لها أصدقاء، مجرد معارف، مصدر دخلها هو رواياتها والورش الكتابية التي تعطيها أحيانًا، هناك مكتب استشارات خاصة قيد الإنشاء مع صديقها الوحيد الذي قابلته في ظروف خاصة، لكن الإجراءات تعرقل كل شيء، وهي بحاجة لأن تكتب، تغمغم وهي مستلقية على أريكتها: العالم مكان قاس، كف عن الكتابة وسينساك الجميع ولن يصبح لك موضع، آه.. لكن هذا هراء، لم ينس أحدٌ «أليكساندر ديماس «أو «نجيب محفوظ».

ثم تتنهد ناردين وتردف: كوني متواضعة قليلا يا فتاة.

يرن الهاتف فتنظر إليه بجمود، هي تكره حقيقة أن أي أحد بإمكانه اختراق دائرتها الانطوائية والتواصل معها عبر جهاز الاتصال السخيف هذا، تهز كتفيها وتجيب.

- آه.. معذرة.. إحم.. ناردين؟

نبره شخص مرتبك للغاية، قليل من الخجل هناك كذلك، ترفع حاجبها وتقول: نعم.. من معي؟

- اه.. هشام.. هشام القصبجي.. الكاتب..

تهز ناردين رأسها قبل أن تتذكر أنه لا يراها فتقول: آه.. أستاذ هشام بالتأكيد.

يصمت هو في ارتباك كأنه ينتظر منها إضافة، فتصمت هي الأخرى، تبًا لفترة الصمت غير المريحه تلك.

- أنت تتذكرينني، أليس كذلك؟

- بالتأكيد.. لقد تقابلنا في ندوة المعرض، أردت أن أشكرك على روايتك التي أهديتني إياها بالمناسبة.

وتتمني في قرارة نفسها ألا يكون قد اتصل بها ليعرف رأيها في روايته، هي تكره المجاملات ولا تقرأ أي شيء يتم عرضه عليها دون أن تتحمس له، يقول لها: هناك شيء.. اه.. اسمعيني.. الأمر معقد للغاية، ومن الصعب شرحه.. الأمر يتعلق..

تغمض ناردين عينيها وتتمنى ألا يتعلق الأمر بمشاعر دفينة تجاهه أو نصيحة أدبية، يقول هشام: بجريمة قتل.

تفتح ناردين عينيها في اهتمام وفضول بينما يتابع هو: جارتي.. متهمة بقتل زوجها.. أخوها لقي حتفه في نفس ليلة القبض عليها في حادثة سيارة غريبة.. و.. جارتي تلك.. تصر على أن القرين قد قتل زوجها وانتحل شخصيته، وأنها بريئة، بعدما قبضوا عليها توفيت والدتها بنوبة قلبية، وفي الواقع.. اه.. أنا لا أعتقد أنها شريرة.

تهز ناردين رأسها في حماس، وتشعر بالدم يتدفق في عروقها، أغلب الناس سيمتعضوا لما سمعته هي للتو، لكنها تنجذب دومًا لكل ما هو غامض وغريب، تقول ناردين: وكيف سأستطيع مساعدتك؟

يتزايد ارتباك هشام قبل أن يقول: لقد انشغل الرأي العام كله بك لفترة لا بأس بها منذ أعوام بعدما حللتِ عددًا لا بأس به من القضايا الغامضة،

وأعتقد أنك الوحيدة القادرة على مساعدتها.

يعود الاثنان للصمت غير المريح مرة أخرى، قبل أن يتنحنح هشام ويقول: هل تستطيعين مساعدتها؟

تنظر ناردين بطرف عينها لرواية يوم ابن آوى.. موسيقى بلترامي تدوي بالأرجاء، كأنما حواس شقتها قد انتبهت جيدًا لسماع الإجابة، تقول ناردين: سوف أحاول.

***

«ترى كيف كانت علاقته بوالدته؟»، يدور التساؤل داخل عقل ناردين وهي جالسة في المقهى أمام هشام، تحاول تحليل وفهم شخصية الأخير كعادتها, في الأغلب لأنها لم تتخلص بعد من آثار وظيفتها السابقة كاستشارية نفسية، أو لأنها فضولية تحب دس أنفها في شئون الآخرين، تمط ناردين شفتيها لنفسها وتواصل التفكير وهي تنظر للرجل المرتبك شديد التلعثم الجالس أمامها، لقد قابلته منذ عدة أشهر في ندوة ما، والشيء الوحيد الذي استلطفته بشأنه هو أنه لم يكن مدعيًا ولا منافقًا، لم يذهب ليجامل ولم يكن مصابًا بمتلازمة سعار الشهرة، والتي تتلخص ببساطة في كون المرء مستعدًا لفعل أي شيء مقابل أن يصبح شخصية مشهورة، كلا لم يكن هشام من مستعرضي صفحات التواصل الاجتماعي، ولم يكن يجيد الحديث المتذاكي عن ثقافته ومغامرته في الحياة، لقد ذهب للندوة لأنه يحب الفن حقًا، كما أنه منطوٍ وغير اجتماعي، وتلك صفة حميدة للغاية بالنسبة لناردين، لتلك الأسباب أعطته رقمها عندما طلبه، حقيقة أنه ودود أكثر من اللازم، وهتشكوك قد حذّر كثيرًا من الأشخاص الودودين، ولكنها كانت واثقة من أنه مسالم ولا يستطع إيذاء بعوضة، والآن ها هي ذي تجلس معه وهو بصدد عرض مغامرة غامضة عليها، هنا قالت ناردين لنفسها: لا تأملي كثيرًا، لا يوجد مغامرات في الواقع البغيض، في الأغلب سيخبرك بقضية تقليدية لن تستطيعي فعل شيء بصددها في كل الأحول، ولكن شعورًا ما بداخلها أخبرها أنها قد تكون مخطئة.

- أستاذة ناردين، أنا لا أجيد فن الكلام كثيرًا، ولكن.. كل ما عليك معرفته هو أن هناك امرأة بريئة متهمة بجريمة شنيعة لم ترتكبها، وعليك تبرئتها.

- شريرة؟

- ماذا؟

- عندما اتصلت أنت قلت لي -وأنا أذكر جيدًا- إن رنا تلك ليست شريرة.

- آه.. نعم

- لماذا استخدمت هذا الوصف؟ ألا تجد أنه رومانسي قليلا؟ كون المرء شريرًا وطيبًا، في زمننا لم يعد هناك وجود لتلك المصطلحات، أنت لا تولد شريرًا ولا تولد طيبًا، هناك عوامل بيئية تؤثر فيك، ويكون بداخلك جانب مظلم وجانب مضيء، وتتصرف وقفا لغرائزك واحتياجاتك وقيمك الناتجة عن معتقداتك والخوف من العقاب.

- هذا كلام المحللة النفسية، ولكن الكاتبة ستقول شيئًا مختلفًا.

ابتسمت له ناردين ولم تعلق فأردف: أنا أعتقد أن الرمادي اختراع ليتماشى مع الموضه فحسب، لا يزال الأبيض والأسود هما المتحكمان، الخير والشر، ليس كل من يساعد الغير ولد في بيئة معتدلة، وليس كل من تألم في الحياة سفاحًا، كلا.. أنا آؤمن بالخير والشر يا أستاذة ناردين.

- وأنت واثق أن رنا ليست مصابة بانفصام في الشخصية جعلها تقتل زوجها وتدعي أن قرينه من فعلها.

- لن أجزم، لكني أثق بحدسي كثيرًا.. لا أعلم لماذا لكني فقط أثق به، تلك الفتاة عندما طلبت مساعدتي.. لقد بدت كـ.. أوفيليا.

- ماذا؟

- أنت تعلمين.. بطلة المسرحية.. لقد بدت كالملائكة.

كتمت ناردين ابتسامتها، الجار معجب بجارته المتزوجة المتهمة بالقتل،

تشعر بأنها في بداية فصل من رواية لم تستطع حتى هي التفكير بها، يردف هشام: لا أعتقد أنها مصابة بالانفصام، ولا أعتقد أنه من الصدفة موت أخيها في نفس ليلة القبض عليها، الطب النفسي لم يعلن تقريره بعد بشأنها، لكن نظرية أنها قتلت زوجها وعاشت وحدها في الشقة مع جثته لأيام أمر.. خيالي.. نعم.. هذا هو الأمر الخيالي.. أن تتمكن فتاة ملائكية كتلك من ارتكاب تلك البشاعة.

- ولكنك تعتقد أن فكرة القرين ليست بالأمر الخيالي.

وفكرت أن الرجل مستعد للإيمان بمخلوق أسطوري بدلا من تصديق أن الفتاة التي استحوذت على تفكيره قاتلة.

نظر هشام إلى ناردين نظرة طويلة كانت تنتظرها قبل أن يقول: أنت بالذات تعلمين أن المجهول به احتمالات كثيرة.

- لكوني كاتبة قصص رعب؟

- لكونك كتبتِ عدّة مقالات عن المجهول وأصول الشر، وحاولتِ تحليل السبب الذي جعل القدماء يرتجفون ليلا في الغابات والصحراء حول النيران وهم يحكون حكايات «أبو رجل مسلوخة» و«أمّنا الغولة» و«البعبع».. و كتبتِ عن هذا الشيء الذي...

قاطعته ناردين قبل أن يكمل: كَوني مؤمنة بالماورائيات لن يعني بالضرورة قدرتي على إقناع السلطات بأن القرين حقيقي.

- أنا لا أعلم إن كان القرين حقيقيًا أم لا، كل ما أعلمه أن هناك شيئًا ما قد حدث في تلك الشقة، وأنتِ الوحيدة...

- نعم نعم.. القادرة على كشفه، حسنًا.. لنفترض أني وافقت على التحقيق، ما الذي تقترحه؟

نظر لها هشام بعينين خاويتين، وهز كتفيه فتنهدت ناردين، تبًا.. هو لا يمتلك خطة، قالت ببطء: حسنا.. دعني أفكر قليلا بكل التفاصيل التي

حكيتها لي، وغدًا نلتقي.

- وماذا عنه هو؟

رفعت ناردين حاجبيها وهي تنظر لهشام قبل أن تقول بشك: من؟

- اه.. زميلك.. المحقق.. ألن تطلبيه معنا في القضية؟

- أنت لا تثق بقدراتي لحل الأمر وحدي!

بارتباك وتلعثم يجيب هشام: اه.. كلا.. في الواقع...

- لا بأس.. قالتها باسمة وأردفت: أنا أمزح معك فحسب.. لو احتجناه سوف أتصل به.

***

في شقتها تجلس ناردين وأمامها عدد لا بأس به من روايات «أجاثا كريستي» و»كونان دويل»، أمامها على الأريكة تتخيل «شيرلوك هولمز» و»هيركيول بوار» -المحققين في الروايات التي تحبها هي- جالسين معها، تقول لهما: حسنًا.. لنفكر بصوت عالٍ ونحاول حل تلك المعضلة.

ينفث هولمز دخان غليونه ويقول في كبرياء: عليك اتباع كل الدلائل المادية الملموسة وتجاهل كل العواطف لحل الجريمة.

بحنق يهتف بوارو بلكنته البلجيكية: كلا بالطبع.. علم النفس هو الحل الأمثل لفك طلاسم أي جريمة، لحل الجريمة عليها أن تفهم شخصية رنا.

هنا تقول مس «جين ماربل العجوز من الخلفية، والتي ظهرت فجأة لتنضم للمحادثة التخيلية: طريقتي المفضلة لحل الجرائم هي اتباع النميمة وتتبع النمط المكرر الذي يتبعه المجرمون.

ترفع ناردين يدها مهدئة وتقول: قليلاً من الصمت أرجوكم، سوف أفعل الثلاثة؛ الدلائل المادية وعلم النفس والنميمة، والآن.. لنفكر بالأمر معًا، امرأة متزوجة حديثًا، تزوجت من حب حياتها، تقتله وتخفي جثته في

البيت، وتدعي أن مسخًا شيطانيًا هو الجاني، أخوها يموت في نفس الليلة، وهي تقسم أنّ الشقة التي تعلو شقتها مأهولة، ولكن الحقيقة أن الشقة مهجورة، لا يوجد أي خيط واحد يجمع بين كل تلك المعلومات.

يهز هولمز رأسه في استنكار ويقول: لا توجد مسوخ شيطانية.

تمط ناردين شفتيها قبل أن تقول: لن أستطيع مشاطرتك رأيك للأسف، لقد رأيت بعضًا منهم، ولكن هذا ليس موضوعنا.

تنفض ناردين رأسها محاولة الهروب من ذكرياتها، وتغمض عينيها وتطلق لخيالها العنان، تمسك بصورة رنا في يدها، وتتخيل نفسها مكانها، فتاة رومانسية تحب رجلاً، يعدها بحياة ومستقبل مشرق، كلاهما يعلم جيدًا أن الحياة سوف تخبئ لهما الكثير من الشراك والمتاعب، لكنها تتزوجه لأنها مقاتلة، لأنها سعيدة معه، والدها توفي وهي طفلة، تجمعها علاقة شديدة القرب بأخيها، يتم الزواج، ويبدأ الحلم، والذي يتحول لكابوس، جثة أسفل الفراش، ادعاءات عن انعكاس لظل القرين في المرآة، صوت أقدام أحدهم في الشقة العلوية رغم كونها مهجورة.

تهز ناردين رأسها وتجلس مرهقة قبل أن تتخيل نفسها وهي رنا، جالسة فوق الفراش عالمة أن هناك غريبًا أسفله، تتزايد دقات قلبها وتتصبب عرقًا، تشعر بآلام ووحدة رنا في تلك اللحظة، تفتح عينيها مرة أخرى وتستلقي للخلف في مقعدها قبل أن تغمغم: ما أقسي الشعور بالوهن، بالعجز والخوف!

تقول لها جين ماربل في تعاطف: تلك الفتاة المسكينة.

تنفض ناردين رأسها، لقد حان وقت الكف عن تخيل المحققين من الروايات البوليسية، عليها الذهاب لمنطقة أخرى؛ الماورائيات، تنظر لانعكاسها في المرآة البعيدة وهي جالسة قبل أن تقول: هل القرين حقيقي؟

أمامها يجلس اثنان من خبراء الميتافيزيقا في الروايات، فان هيلسنج

ورفعت إسماعيل ، تنظر إليهما ناردين مرحّبة، يقول هيلسنج وهو يعدل من معطفه الفيكتوري: أبناء الليل.. تلك الكائنات التي تأتي لنا من الظلام وتعيث فسادًا، يحيون منذ بداية الخلق، هم حقيقيون.

يشعل رفعت إسماعيل لفافة تبغ وهو يرتدي بذلته الكحلية ويقول: لا أعلم، ربما كل تلك الكائنات حقيقية، وهذا ما ورثناه من رجل القبيلة في لاوعينا للحظتنا تلك ولهذا نهاب الظلام، ونلجأ للملح، في الغرب الملح يوقف مصاصي الدماء وعندنا يوقف الجان، أعتقد أن هناك تفسيرًا أكثر بساطة للقرين لكن أحدًا لم يصل إليه بعد، هو أنه يوجد لكل منا شبيه، يحيا سجينًا في عالم مظلم ويحاول دومًا الخروج للوصول إلينا، وعندما يصل يقتل شبيهه ويحيا حياته، لو اتبعنا تلك الأسطورة فمعنى هذا أنّ هناك كامل حرًا طليقًا في المدينة الآن، نحن لا نعلم الكثير عن القرين، لكننا نعلم أنه يحب التجول في المقابر، ويحب القتل، هو يقتل وينهب ويضاجع، ويستخدم دهاءه في نشر الحزن من حوله، مثل والدة رنا التي توفيت بالسكتة القلبية، القرين يتغذى على حزن المقربين لضحاياه، أو يستمتع.. لا أعلم.. كذا تقول الأسطورة على أية حال.

هنا تتدخل جين ماربل مرة أخرى لتقول: النمط.

ترفع ناردين رأسها وتتساءل عن كنه ما تعنيه العجوز فتجيبها: هناك دومًا نمط للجرائم، ابحثي عن جريمة مماثلة، أنت بحاجة لخيطٍ ما ليربط كل الأحداث، ولكي تجدي العامل المشترك عليك التحقق إن كان هناك نمط أم لا، ابحثي عن جريمة مماثلة.

ترفع ناردين رأسها للسقف قبل أن تقف وتتجول في شقتها الخالية بعدما تركت أصدقاءها الخياليين، ترفع سماعة هاتفها الأرضي وتتصل بصلاح؛ صديقها الوحيد في أرض الواقع.

***

الفصل الثالث

عقدت الفتاة يدها وابتعدت بها عن يده وهي تردف:

- صدقني يا صلاح.. يومًا ما ستكون سعيدًا، أنا لا أريد إيذاءك، لكني حقا أعتقد أنه لا يوجد مستقبل لخطبتنا تلك.

وحررت أصبعها من خاتمه ووضعته أمامه على المنضدة في الكافيه، ترى كم من حادثة كتلك شهدتها تلك المنضدة؟ دار التساؤل السخيف بداخل عقله وهو ينظر للخاتم، وبعدما رحلت كان يجلس هو يحدق بالفراغ، ونظر إلى الرسالة الطويلة التي وصلته على هاتفه المحمول، والتي تتلخص في أنهم فصلوه من وظيفته لأسباب تتعلق بالميزانية وآثار الأزمة الاقتصادية الخاصة بـ ٢٠٠٨ .. نظر صلاح جواره وغمغم: يوم رائع.

ولسبب ما شعر صلاح بالحرية، وسط كل شعوره بالحزن والألم وما يترتب عليهما من الشعور بالثقل في الحركة والشرود، لكن شيئًا له علاقة بفشل كل خططه في الحياة جعله يشعر أنه حر ورائق البال إلى حدٍ ما، لقد كان يكدح لأعوام في عجلة التخطيط والإنتاج، والآن هو رجل حر طليق بلا خطيبة ولا عمل.

كان هذا منذ ثمانية أعوام، ولا يزال ناقوس هذا اليوم يدق في عقل صلاح كل حين وآخر، لم يمتلك سوى أخته في تلك الفترة، لم تكن قد توفيت بعد، حقيقة أن أخته كانت تعاني من الاكتئاب الحاد، كما ترى الاستشارية النفسية -ناردين الصباغ- وهذا من ضمن الأسباب التي أحدثت التعارف بينه وبين الكاتبة، لكنه كان يحب أخته بشدة لأنها كانت بشكلٍ ما الشخص الوحيد القادر على الاعتناء به، لكنها رحلت، ظل يعمل لثمانية أعوام كمحقق في قضايا الاحتيال والتزوير بشركة تأمين خاصة، وبشكل ما ناسبته تلك الوظيفة لأنها ساعدته على تناسي حقيقة أنه بلا حياة، وظل يقضي وقته وهو يحقق بشئون الآخرين.

تثاءب صلاح وهو مستلقٍ في البانيو الممتلئ بالماء، يلعب الشطرنج مع

نفسه في ذات الحين، ونظر للرسالة التي وصلته من ناردين مرة أخرى، مسح بيده على وجهه، واعتدل لتتساقط قطرات المياه، نظر إلى انعكاسه في المرآة وأخذ نفسًا عميقًا قبل أن يبتسم ويقول لنفسه بسخرية مريرة: ابتسم وتألق يا صديقي، ولا تنظر للسواد أسفل عينيك وهذا الشعور السقيم بالخمول، الحياة لا تزال رائعة، الحروب لا تزال تدمر البلدان، والشركات لا تزال تنهب الجميع، والحب يتحول لعذاب إغريقي في نهاية المطاف، ولكن الحياة لا تزال رائعة.

غمز لنفسه وذهب ليرتدي ملابسه، واتصل بناردين وهو يفعل هذا.

***

- حسنًا حسنًا.. لقد فهمت.. فقط قولي لي كيف توصّل هشام هذا لكل تلك المعلومات عن القضية.

قالها صلاح وهو يدير مقود السيارة متجها للعنوان الذي أعطته إياه ناردين، أتاه صوت الأخيرة: لقد استغل عمله ككاتب وصلاته ببعض الصحفيين ورشا بعض أمناء الشرطة كذلك.

- هممم.. هو مولع حقا بتلك الفتاة.

- ماذا؟!

- أين قدراتك الاستنباطية يا فتاة؟ هذا الرجل معجب بجارته المتزوجة، وهذا هو التفسير الوحيد لرغبته الحارة تلك في مساعدتها.

صمتت ناردين فأردف صلاح ساخرًا: أنت مغتاظة أني استنتجت ذلك قبلك أليس كذلك؟

- ومن قال لك إن تلك الاحتمالية لم تخطر ببالي قبلك؟ على أية حال لكل جواد كبوة.

- أو أني أصبحت المحقق الأفضل في هذا الفريق.

- تبًا لك!

- هاها.. حسنا لقد وصلت يا عزيزتي، سوف أتصل بك بعدما أنتهي من المقابلة.

- فقط تذكر، هي تعيش وحدها، زوجها توفي ولديها ابن كان مجندًا وتوفي في تفجير على الحدود، كمال كان آخر فرد في عائلتها، ولو كنا محقين بشأن القرين فهناك مخلوق يتمثل بشكل ابنها الميت يتجول بالأرجاء.

هز صلاح رأسه وهو ينظر للفيلا أمام عينيه بعدما عبر البوابة، قال لناردين: سوف أتصل بك بعدما أنتهي.

***

رفع صلاح رأسه للسماء ونظر إليها عندما زأرت، بدأت الأمطار في الهطول بغزارة بعدها ودوي البرق، بخطا سريعة اتجه الأخير لباب الفيلا وقرعه، وبينما هو ينتظر بالخارج تطلعت عيناه للطلاء الرمادي المتناسق لجدران الفيلا الأمامية، أنيقه متوسطة الحجم من طابقين وأربعة نوافذ تتصدرها حديقة خضراء صغيرة، لا يوجد حمام سباحة، ولكن الدائرة الهندسية لمحورها تقول إن هناك قبوًا، غمغم صلاح: في عالم الأثرياء تلك ليست فيلا فاخرة، الدرجة المتوسطة من الطبقة الثرية.

وهز كتفيه قبل أن يرن الجرس مرة أخرى، وعيناه تبحثان كأنه سيجد كامل في ركنٍ ما، تذكر صوت والدة الزوج عندما تحدث معها خلال جهاز الإدخال بالبوابة قبل أن تسمح له بالدخول، لقد أخذ منها موعدًا بعد مكالمة طويلة خلال الهاتف، كان يعلم أنها سترفض مقابلته في البدء، لكنه سيقنعها في نهاية الأمر، بشكل ما تلك كانت موهبة صلاح؛ الإصرار، وهو يعلم أن أرملة فقدت ابنها للتو لن تقابل شخصًا ما فضوليًا يريد دس أنفه والتحقيق، وبالتأكيد لن تقابل رجلا يحاول إثبات براءة المتهمة بقتل كامل، ولذا أعد صلاح خطبة كاملة استعدادًا لإقناعها، خطبة تضمنت وعودًا بالبحث عن الحقيقة واحتمالية كون رنا بريئة، ولكن لدهشته لم

تقاوم المرأة، لقد رحبت به على الفور كأنها كانت تنتظر اتصاله أو تأمله، تتزايد الأمطار وتهب الرياح بقوة متسائلة عمن أيقظها، يرن صلاح الجرس مرةً أخرى فينفتح الباب، أمامه امرأة أربعينية شديدة النحافة فارعة القامة ترتدي فستانًا أسود وقلادة فضيّة، شديدة الفتنة والجمال بطريقتها الخاصة، عظام وجنتيها البارزتين وعيناها السوداوان الضيقتان، لا بُدّ أنها كانت رائعة وهي شابة -كذا فكر صلاح- إذ استطاعت الحفاظ علي جاذبيتها بهذا الشكل بعد إنجاب ثلاثة أطفال، أفسحت له بكتفيها في صمت فخطا للأمام، قالت له بصوت خافت: تفضل.

لوهلة تساءل صلاح لماذا فتحت له هي الباب بنفسها؟ أين الخدم؟ ثم تذكر، الدرجة المتوسطة من الطبقة الثرية، هم لن يتحملوا نفقات الخدم فيما يبدو، إذًا هي تعيش وحيدة، لكنه وجد فتاة محجبة تنسدل خصلة شقراء مصبوغة على جبينها، أشارت السيدة إلى الفتاة وقالت: تلك صفية، مساعدتي الخاصة.

هناك واحدة إذًا، وصاحبة الفيلا امرأة متواضعة تفتح الباب بنفسها في الآن ذاته، لعلها تفعل هذا لأنها تتأخر في دفع مستحقات الخادمة المادية أو شيء من هذا القبيل، يومئ صلاح برأسه لصفية ويسير مع نجوى للصالة، هذا كان اسمها أليس كذلك؟ نجوى.. نعم.. ليس هذا أفضل توقيت لنسيان التفاصيل.

يجلس صلاح في الصالة وعيناه تدوران بها، لوحة ضخمة لتل وامرأة تحتضن طفلها بسعادة وهي جالسة على قمته، قالت نجوى وهي تنظر للوحة معه: الفلاحة والطفل، لوحة متوسطة الشهرة من القرون الوسطى، هذه تقليد بالطبع.

يهز صلاح رأسه قبل أن يقول: لوحة رائعة.

- بماذا تشعر وأنت تنظر إليها؟

جفل قليلا، يكره الأحاديث الجانبية قبل الدخول لصلب الموضوع، قال

بهدوء: أشعر بالـ... الفضول.

- الفضول لأي شيء؟

- لمعرفة أين زوجها؟

رفعت نجوى حاجبيها قبل أن تقول: أول مرّة أسمع هذا التعليق عن لوحة الفلاحة والطفل، الأغلبية يتحدثون عن الأمومة أو الفقر أو الجمال الفطري، ولكن لم يتساءل أحد من قبل أين الأب؟

- لا أعلم.. هذا ما جال في خاطري، هي تجلس هنا مع رضيعها على قمه التل، هل زوجها يعمل في الحقل؟ أم أنه يبحث عنهما خائفًا ومعتقدًا أنهما في خطر ما؟ أم أنه جندي من جنود الملك ذاهب ليحارب قبائل السلت أو الفايكنج؟ اللوحة تبدو كأنها في شمال إنجلترا في زمن ما قبل الحملات الصليبية.

تمط نجوى شفتيها وتقول: أنت مثقف وواسع الخيال.

- لم أكن دومًا هكذا، لكن تأثير أصدقاء السوء، صديقة سوء بالأحرى.

- تقصد ناردين الصباغ.

- آه هه.

- أنت قلت لي إنها أيضًا مهتمة بما حدث لابني.

- تلك هي الحقيقة.

تمط نجوى عنقها للأمام وتنظر لعيني صلاح، يفكر هو.. ها هي ذي.. لحظة الحقيقة.. تقول نجوى محدثة إياه:

- لماذا أنتما مهتمان بما حدث لكامل رحمه الله؟ لقد قتلته تلك المخبولة، وسوف تُعدم ويتم القصاص، أنا قرأت رواية «الذئاب»، ورواية «إنهم يأتون ليلا» لناردين الصباغ، ولم أحب أيًا منهما، كل هذا العنف والدموية والخوف من المجهول، رغم أني أحببت قدرتها على سرد قصة غامضة

ممتلئة بالتشويق، لكني لا أحب هذا، لا أحب الغموض، الحياة واضحة ولا تحتاج لأسئلة كثيرة، لا تحاولوا البحث عن كنز مفقود، إذا كان هذا مبغاكم، أن تجنوا المال من وراء مأساة عائلتي، تجمع أنت معلومات وتكتب الأخت ناردين رواية عن ما حدث لابني لتحقق لها الشهرة، أنا أرفض هذا.

يهز صلاح رأسه قبل أن يغمغم بتردد: أنت مخطئة.

ثم يكرر: أنت مخطئة.

تنظر له نجوى بعينين مترقبتين كأنها تريد أن تسمع دفاعه لتحدد إن كانت ستتحدث معه أم لا، إن كان حقيقيًا أم زائفًا، يقول صلاح:

- أنت وافقتِ على مقابلتي لأنك تشعرين أن هناك شيئًا ما خاطئًا في الأمر كله، لا أعلم ما هو مصدر شعورك لكن هذا ما أريد معرفته، أنا لست هنا من أجل الشهرة، المال؟ ربما، أنا محقق خاص بشكل ما، وجار ابنك يدفع لي ولناردين مالاً مقابل تلك الاستشارة، ولكني أيضًا أريد معرفة ما حدث.

- لكنك غير منوط بهذا، أنت لست رجل قانون.

- أنا مجرد رجل، رجل يفهم أنك تريدين تقييمه لمعرفة إن كان جديرًا بمعرفة أسرارك أم لا، لكني أؤكد لك شيئًا واحدًا، أنا لست انتهازيًا، أنا أكره الأوغاد الانتهازيين.

تصل صفية وهي تحمل صينية يتراصّ عليها الكثير من الحلوى وكوب من عصير البرتقال، تنحني وتضع الصينية أمام صلاح وتبتسم له في أدب قبل أن تستدير راحلة.

تبادِل نجوى صلاحًا نظرة طويلة قبل أن تقول: حسنا.. أنا لا أعتقد أن رنا قتلت كامل، لقد كانت تحبه بشدة، نحن أثرياء بالوراثة، أو كنا على أية حال، ولكن حال أسرتي تدهور في العقود الأخيرة، وصرنا نوفر قوت حياتنا بالكاد، ومن خلال الكثير من العمل، في البدء كنا عاطلين بالوراثة

أيضًا، أنت رجل من الطبقة الوسطى وسوف تعتقد أني امرأة مدللة، لكن ماذا لو ولدت أنت ووجدت لديك الكثير من الأموال ولا حاجة بك للعمل، المال يعطي احترامًا وراحة لن يستطيع أحد إنكارها، على أية حال، زوجي كان مستثمرًا وكثير الترحال، توفي مع ابنتي الكبرى في حادثة سيارة.

توقفت نجوى قليلا عن الكلام، وجه صلب لا يُظهر أي تعبير، وأردفت بعدها:

- ابني شاكر قُتِل في معركة على الحدود، كان جنديًا، ولم يتبقَّ لي سوى كامل، والآن كامل قتلته زوجته، كأن هناك لعنة تطارد عائلتي.

مسحت نجوى دمعة هربت منها، باحترام شديد نظر لها صلاح، تلك امرأة قوية، أقوى منه في الواقع، لو كان مكانها لكان فقد عقله من فقدان كل هؤلاء الأبناء والأحباء، ظل صامتا منتظرًا إياها أن تكمِل، ترفع نجوى رأسها بكبرياء وتقول: أنت حقا تعتقد أن رنا بريئة؟

يصمت صلاح، هو لا يعلم إن كانت رنا بريئة أم لا، تبًا.. هو لم يرَ الفتاة ولم يجد الوقت الكافي للاطلاع على تفاصيل القضية بعد، تبًا لتسرّع ناردين هذا! يفتح فمه قبل أن يصمت في تردد فتقول نجوى:

- إذًا أنت غير واثق.

- أنا أبحث فحسب عن الحقيقة.

في المطبخ تمدّ صفية يدها داخل الحوض وتمسح إناءً زجاجيًا غافلة عن الواقف في الحديقة ينظر إليها، تواصل صفية عملها غير مدركة للكيان المقترب من النافذة.

يقول صلاح:

- ربما لو أخذت منك معلومات أكثر لتمكنت من الوصول للحقيقة.

خلف صلاح ووراء زجاج النافذة الأرضية لمدخل الفيلا يقف رجلٌ تجاوره فتاة ينظران لصلاح ونجوى.

تصرخ صفية فجأة، وتنتفض نجوى عندما تدوي الصرخة في أنحاء الفيلا بالكامل، ويهب صلاح واقفًا.

يهم بالهروع لمصدر الصرخة عندما يسمع صوت الطرقات على النافذة، فيلتفت هو ونجوى وينظر الاثنان مشدوهين للهول الماثل في حديقة الفيلا.

تصرخ صفية عندما ترى الزائر من وراء الزجاج، وتندفع هاربة من المطبخ وهي تولول، تعدو تجاه باب الفيلا هاربة، لكن نجوى تصرخ: لا تفتحي الباب.

تتوقف صفية مذعورة فتشير نجوى بذراع مرتجفة للنافذة الأمامية وتقول: انظري.

تلتفت صفية وتنظر للشاب والفتاة، ينضم إليهما الزائر الثالث الذي رأته هي في المطبخ، كهل يرتدي حلّة أنيقة يقف جوارهما، تقول الشابة محدّثة نجوى:

- ماما.. أرجوكِ.. دعينا ندخل.. الجو بارد بالخارج والأمطار غزيرة.

ويميل الشاب برأسه وينفخ على الزجاج قبل أن يقول:

- ماما.. لماذا لا تدعيننا ندخل؟

تغمغم نجوى: يا إلهي!

صامتًا ينظر صلاح إليهم، تنظر له نجوى باكية وتقول: أرجوك فسّر لي لماذا يقف هؤلاء الثلاثة وهم يرتدون أقنعة وجوه أبنائي الموتى وزوجي، ويطلبون مني السماح لهم بالدخول لبيتي.

ينظر إليها صلاح طويلا قبل أن ينظر للنافذة، ويفكر: أقنعة أم جلد موتى؟

***

تدوي السماء وتزأر، ويتزايد هطول الأمطار، وفي الحديقة أمام الفيلا يتحرك الثلاثة بنعومة وسلاسة وهم يطلبون من نجوى السماح لهم بالدخول، «ماما.. لِمَ لا تدعيننا بالداخل؟ الجو بارد بالخارج».

ينظر صلاح لنجوى التي أصيبت بهيستيريا تامة قبل أن تصرخ وهي تمسك بالهاتف: الخطوط مقطوعة.

بالطبع الخطوط المقطوعه، كذا يفكر صلاح، هم محاصرون داخل فيلا في العراء ولا يوجد أحد على مقربة أميال، وهناك مختلون يرتدون أقنعة الموتى بالخارج ويطلبون الدخول، تبكي صفيّة وهي تقف مرتبكة أمام الباب في صراع بين خوفها ورغبتها في الخروج، يقول صلاح: حسنًا.. حسنًا.. مدام نجوى، ألديك مكانٌ آمن نختبئ به؟

- ما الذي تقصده بمكان آمن؟ لا أمتلك غرفة ذات أبواب حديدية لو هذا ما تقصده.

- ألديك سلاح؟

- كلا.

ترد نجوى بهيستيريا تامة، ويبدو لصلاح أن لوحة الفلاحة ترمقهم بسخرية.. ينظر صلاح للمطبخ ويقول: هناك دومًا أسلحة، لديك سكاكين طبخ على ما أعتقد، لنتسلح بالسكاكين ونختبئ داخل غرفة و...

تصيح صفيّة منهارة: لن أستطيع.

وتهرع باتجاه الباب لتفتحة آملة في الهروب، آملة أن يكون هذا الباب هو الطريق الأخير لأحلامها، آملة أن يكون هذا الباب هو جئي علاء الدين وقد أتى لينفذ طلباتها، يعدو صلاح ويجذبها للوراء وهو يصيح: انظري إليهم.. انظري إليهم.

تتوقف صفيّة عن التشنج وتنظر لهؤلاء الواقفين وراء النوافذ، يردف صلاح: أحقا تريدين الخروج إليهم؟

هنا يقترب أحدهم -الأب- من النافذة ويلعق زجاجها وهو يتلمَسها بوجهه، تغمغم صفية: يا إلهي!

يلتفت صلاح وراءه قبل أن يهتف: تبًا! أين نجوى؟

تعود إليهما الأخيرة من المطبخ وعلى وجهها تعبير من التصميم، وفي يديها ثلاثة سكاكين حادة شديدة الضخامة، تقترب نجوى من صلاح وتعطيه سكينًا، وتنظر لصفية قبل أن تهتف: كوني صلبة.

وتعطيها سكينًا هي الأخرى، يومئ صلاح برأسه قبل أن يقول:

- والآن لنذهب لغرفة تملكين مفتاحها، غرفة سيكون من الصعب على هؤلاء الملاعين اقتحامها.

يتحدث صلاح وهو غير مدرك أن هناك اثنين فحسب بالخارج، وأن الفتاة قد انسلّت من النافذة الخلفية للفيلا بعدما كسرت زجاجها مع دوي البرق، لم يرَ الفتاة وهي تسير تجاههم ببطء، حاملة مشرطًا حادًا في يدها، يسير الثلاثة للغرفة وعيونهم على النوافذ الأمامية، وتحاول صفيّة الاتجاه مسرعة للطابق الثاني، إلا أن نجوى تهتف بصرامة: كلا.. القبو هو أكثر الأماكن أمانًا.

تقف صفيّة جزعة وتتقدم نجوى المسيرة، من وراء المقعد الضخم الماثل وراء صفيّة تقف الفتاة بينما الأب والأخ يراقبان من الخارج.

يلتمع المشرط الحاد وهو يرتفع لأعلى وأمامه عنق صفيّة.

تدوي العاصفة.

عيون صلاح لا تفارق النوافذ، تفتح نجوى باب القبو وتلتفت إليهما، يغمغم صلاح: أين الفتـ...

تصرخ نجوى: صفيّة.. احترسي..

تهوي الفتاة بالمشرط لتحز عنق صفية، ينغرز المشرط في جلد عنقها الناعم، تديره الفتاة بسرعة وتنبثق الدماء بجنون، تتسع حدقتا عيني

صفية، إنه الموت يا سادة، وقد حضر في الفيلا ولا يوجد وسيلة لصرفه الآن.

تسقط صفيّة غارقة في دمائها، بينما يندفع صلاح صوب الفتاة، فقط لتنكسر النافذة الأمامية ويدخل منها الرجل ذو الحلّة وقناع الموت، ووراءه الشاب، ويندفعان بجنون صوب صلاح، ينظر صلاح إليهما وهما يعدوان تجاهه، ينظر لجثة صفيّة، وينظر للفتاة التي تهم بالانقضاض عليه هي الأخرى، تصرخ نجوى: تعالَ الآن. يقفز صلاح ليتدحرج على السلالم ويجد نفسه داخل القبو، ونجوى تغلق بابه بإحكام، يقف صلاح ويتراجع مع نجوى للخلف بينما الطرقات تدوي بعنف على باب القبو، قبل أن يتعالى صوتهم الناعم يتساءل في رفق وحنان: ماما.. لماذا لا تسمحين لنا بالدخول؟

يتوقف الطرق فجأة على الباب، ومعه تتوقف دموع نجوى، تقول بشرود وبصوت قادم من عالم آخر: لقد ذبحوا صفيّة.

ثم تنظر لصلاح وتهتف بارتياع مكرّرة: ذبحوها.

طرااااخ.

ينتفض الاثنان وهما ينظران للباب مع صوت الارتطام القوي.

- ما الذي يحدث؟ يا إلهي! ما الذي يحدث؟

- إنهم يحاولون كسر الباب.

***

الفصل الرابع

فور أن انكسر الباب التصقت نجوى بالجدار وهي ترمقهم، بينما وقف صلاح في تأهب قابضًا على السكين، لكن أحدًا لم يكن هناك، مجرد الصمت والفراغ، ولوهلة ظل صلاح ونجوى صامتين تمامًا ومتصلبين بمكانهما كالتماثيل، قبل أن يغمغم صلاح بصوت خافت: أتسمعين هذا؟

صوت همس.. إنهم يهمسون.

تنتصب حواس نجوى، وتسري القشعريرة بجسدها، نعم.. صوت همسات ماجنة تخلل الصمت الجاثم عليهما في القبو.

قبل أن يريا ظلالا تتراقص على الحائط عاكسة أجسادًا خلف الباب، تتزايد دقات قلب نجوى وهي تقاوم الإغماء، قبل أن تسمع هي وصلاح صوت شيء ما يتدحرج، وأمام عيني صلاح تستقر رأس صفيّة أسفل سلم القبو بعدما تكف عن التدحرج، تشهق نجوى قبل أن تسقط أرضًا، ويتراجع صلاح للخلف وهو يرمق الرأس المقطوع.

***

تعقد نجوى يدها بيد صلاح، لقد مرت ساعات وهما في القبو يسمعان الهمسات فحسب، ينتظران هجومًا ما، لكن شيئًا لم يحدث، وهذا الانتظار يوشك على تحطيم أعصابهما، تهمس لصلاح: ربما يريدوننا أن نفقد عقلنا.

- ماذا؟

- مثل مسئول الموارد البشرية الذي يترك المتقدم ضحية للوقت قبل المقابلة.

نظر لها صلاح بطرف عينه، فقالت نجوى:

- اه.. لعلك تفكر كيف يتسنى لتلك المرأة الثرية أن تعرف بشأن العمل والمقابلات، لكني قلت لك نحن لسنا بهذا الثراء.

هز صلاح رأسه معتذرًا بشكل ما عن طريقته في الحكم عليها، شردت هي قليلا قبل أن تهمس: ربما كل ما يحدث يعني أن كلام رنا حقيقي، ربما هناك قرين حقا.

- هذا لا يفسر من هؤلاء الذين يهاجموننا.

- لا أعلم، لكن أحداث اليوم تقول إن هناك شيئًا بشعًا ما يدور ها هنا.

تنهد صلاح صامتا، التفتت إليه نجوى قائلة: لو كانت ادعاءات رنا صحيحة، وقرين ابني موجود، هذا يعني أنه كامل أليس كذلك؟ أن ابني لا يزال حيًا بشكلٍ ما وبإمكاني رؤيته.

نظر صلاح لعينيها الدامعتين قبل أن يغمغم: لا تفكري على هذا النحو.. فقط لا تفكري على هذا النحو، لقد فقدت أحدًا من قبل، وهذا التفكير سيقودك لطريق من الرثاء للنفس سيودي بك للجنون.

بشرود وبصوت خافت تحركت شفتا نجوى ببطء، وهي تتحدث دون صوت لنفسها، ونظر إليها صلاح وهي تفعل هذا، غريبة الحياة، الكل ينظر لامرأة مثل نجوى فيراها من الخارج فحسب، ويحكم على الطبقة الغاشية التي تخفي الوهن الداخلي، أنت تنظر لأحد وتفكر في موقفك الحالي معه فحسب، لا تتخير لحظة ولادته أو احتضار أحد قريب منه، لا تتخيله في لحظاته الحميمية، ولكن صلاح فعل هذا وهو ينظر لنجوى، تخيلها وهي حبلى، وهي تلد كامل، وهي تفقد زوجها وأبناءها، تخيل حياتها وأحلامها وهي طفلة، ترى نجوى التعاطف في عينيه فتبتسم في وهن قبل أن يعلو صوتها ليسمع ما تقوله: أنا لا أعلم من هؤلاء السفلة بالخارج، هؤلاء القتلة، لكني أعلم أني لم أستسلم قط من قبل، طيلة حياتي وأنا أحارب، شأني شأن أغلب الناس، نقاتل كي نندمج في المجتمع، لو رسبت في المدرسة فأنت متخلف عن السباق الذي يلهث به الجميع، لا يصح أن يتأخر زواجك، عليك أن تواكب الجميع في السباق، احصل على وظيفة بلا شغف ولا روح، وتظاهر بأن كل شيء على ما يرام أمام عائلتك، تلك كانت حياتي بشكل أو بآخر، ولكن الشيء الوحيد الحقيقي في تلك الحياة كان أبنائي، لم يكن هناك زيف ولا ادعاءات ولا مصالح، والآن فقدتهم جميعًا، وهؤلاء السفلة بالخارج، لا يتركونني حتى لحزني، كلا.. عليهم أن يضيفوا العبث، العبث والجنون، يقتحمون بيتي ويرتدون أقنعة لأحبائي ويعبثون بعقلي ويذبحون صفية، لماذا بالله عليك؟ من هؤلاء؟ وهل قتلت رنا كامل حقًا؟ هل هناك كامل آخر يحيا حرًا ويعيث فسادًا وهو الذي أرسل هؤلاء الأوغاد إلى هنا؟ أرسلهم ليقتنصوا والدته؟!

تدمع عيناها مع الجملة الأخيرة، وجد صلاح نفسه متأثرًا بشدة بما قالته، نظرت إليه نجوى وقالت بأسى: رنا هي العائلة الوحيدة المتبقية لي بشكل ما، وكامل كان...

تتغلب نجوى على الغصة في حلقها وهي تكمل: كامل كان يحبها حقا، فقط عدني أنك لن تتركها لو كانت بريئة.

- أعدك.

يقولها صلاح قبل أن يضيف: وأعدك أننا سنخرج أحياء وسوف نفهم كل ما يحدث.

ابتسمت له نجوى وقالت: أنت لا بأس بك في نهاية المطاف.

- إذًا فقط اجتزت الاختبار.

- اعتقد ذلك.

- وأنتِ أيضًا سيدة لا تستحق سوى الاحترام.

حافظت نجوى على ابتسامها وقالت: أحيانا أعتقد أنه... اههخ..

تحشرج صوتها وانبثقت الدماء من فمها عندما انغرز السهم في عنقها، وعلى باب القبو وقفت الفتاة وهي تحمل القوس في يدها وتشده للخلف واضعة سهمًا آخر به، تشنج جسد نجوى أمام عيني صلاح، وبصقت الدماء في وجهه وهي تسعل وتنتفض قبل أن تهمد حركتها تمامًا، وفي ثواني معدودة نظر صلاح لجثتها ويداه ترتعشان قبل أن ينظر للفتاة وهي ترفع القوس وتشده للخلف مصوبة السهم تجاه صلاح.

والآن يا صلاح، ها أنت محاصر في ركن ما في القبو، وهناك قتلة يحاصرونك، جوارك جثة امرأة فشلت أنت في إنقاذها، أنت بلا سلاح، لكن لا تقنط أبدًا يا فتى، هناك دومًا أمل لو امتلكت العزيمة والإصرار الكافيين لهذا، والآن.. تدخل الفتاة وهي تبحث عنك، وراءها الفتى حاملا فأسًا ضخمًا بين يديه، والكهل يقف وراء الباب ينتظر في صمت، لا داعي

لأسئلة من طراز من هؤلاء ولماذا يحدث ما يحدث الآن، دعك من التشتت، عليك أن تركز جيدًا، ابحث عن الجزء الخفي منك، نعم.. عد واختبئ خلف ذلك الصندوق الخشبي الضخم، سوف تكسب بضع ثواني لكنها غالية جدًا جدًا، بينما السهم ينطلق شاقًا الهواء ومتجهًا إليك، انزلق أرضًا وأنت تعدو ليمر السهم من فوق رأسك، وتسمع صوته وهو يشق الهواء أعلى رأسك، تسمع الفتاة وأخاها المفترض وهما يتحركان صوب الصندوق، اقبض على السكين في يدك جيدًا، إنه سلاحك الوحيد الآن، لا تنس.. قبل المواجهة لا تنس أن تنبطح، فقط لا تنس أن تنبطح.

يرفع صلاح رأسه ويرى الفتاة والفتى أمامه خلف الصندوق مباشرة، بينما والدهما يقف يسد مدخل باب القبو بجسده راسمًا بظله انعكاسًا راقصًا على الحائط.

يندفع صلاح تجاههم مفاجئًا بهجومه وهو يلوّح بالسكين.

يدفع الفتاة بكل قوته قبل أن تعيد تعبئة سهمها، فتسقط أرضًا مندفعة بشدة وتتدحرج على الأرض، يرفع الفتى يده ويلوّح بمشرط صوب وجه صلاح الذي تراجع مبتعدًا، قبل أن يجرح وجه مهاجمه بالسكين، ويعدو بسرعة تجاه الباب، يرفع الأب الفأس عاليًا وصلاح يندفع تجاهه، من وراء صلاح يعتدل الفتى وتقف الفتاة.

ينعكس الفأس على عيني صلاح وهو يقترب من الرجل ذي البذلة.

وتذكر يا صديقي.. لا تنس أن تنبطح.

ينبطح صلاح ويغرس رأسه في معدة الرجل في نفس اللحظة التي يهوي فيها الفأس على الهواء، يعمل الاندفاع ذاته مهمته ويتراجع الرجل للخلف، لا يسقط لكنه يترنح، وكان هذا كافيًا لصلاح كي يواصل العدو مبتعدًا، يسمعهم يطاردونه إلى صاله الفيلا: يا إلهي!

وبينما هو يلهث تلتقط عيناه الأهوال التي فعلوها هم، لقد أعادوا تزيين جدران الفيلا بأشلاء صفيّة، يلهث صلاح ويقف، على قدحتي عينيه

تنعكس الدماء على لوحه الفلاحة والطفل، أجزاء متناثرة من جسد الخادمة على الأرائك والمقاعد والحائط، تدور الدنيا بصلاح ويجاهد كي لا يُفرغ جوفه ويصيح: أيها المرضى الملاعين.. من أنتم؟!

يلتفت وراءه فيجد ثلاثتهم واقفين ينظرون إليه، يفكر في لحظة أن ينقض عليهم محاولا أن يفتك بثلاثتهم، لكنه يعلم جيدًا أنه لن يستطيع التغلب عليهم، يتراجع صلاح للخلف ببطء، رافعًا السكين تجاههم، يخطو للخلف بحرص، يتصبب عرقًا، لا يستطيع تمييز تعابير وجوههم من أسفل الأقنعة، لكنه يشعر بابتسامتهم بشكل ما وهم يحاصرونه كفأر في المصيدة.

يواصل صلاح التراجع للخلف حتى يلامس ظهره باب الفيلا، يرتجف عندما يشعر بالباب المعدني، وتمتد يده بحرص لتدير المقبض وعيناه تتابعانهم، هدوء ما قبل العاصفة هذا، سينقضون في أية لحظة، هو يعلم هذا جيدًا، تنزلق يده من فوق المقبض إثر العرق المتصبب، هنا تصرخ الفتاة بلوعة وتندفع تجاهه، يفتح صلاح الباب ويندفع خارجًا ولا ينسى إغلاقه بإحكام، ينكسر زجاج النافذة وتخرج يد الأخ، فيغمد صلاح السكين بها، يصرخ الفتى ويسحب يده للداخل.

والآن لا تنظر وراءك، اجرِ.. اجرِ كأن الشيطان يطاردك.

يتوقف صلاح عن العدو ويلتفت لاهثا وينظر للفيلا، يخرج هاتفه المحمول الذي تهشم إثر صراعه معهم، لم يكن هناك شبكة في تلك المنطقة اللعينة منذ قدومه علي أية حال، ترتجف يد صلاح القابضة على السكين وهو وينظر للثلاثة الواقفين أمام الفيلا ينظرون إليه، يشعر برغبة عارمة في العودة ومواجهتهم، لقد وعد نجوى أن يحميها وأن يفهم ما الذي يحدث لها وما الذي حدث لابنها، ولقد جعلوه يحنث بوعده الأول لها، يظل صلاح واقفا ناظرًا إليهم ويتساءل لوهلة: لماذا لا يطاردونه؟ هنا يدرك أنهم لا ينظرون إليه، بل لشخص آخر يقف وراءه، ينظرون إليه كأنه إلههم، يلتفت صلاح وينظر للشخص الواقف ملثمًا بالظلال، إلى كامل! لا

يستطيع تبين ملامحه.

إذًا مهاجموه أتباع للقرين بشكل ما؟! والقرين حقيقي؟ هناك شيء ما خاطئ يحدث لا يستطيع عقله استيعابه، هو بحاجة للتفكير، هذا لو نجا من تلك الليلة حيًا.

يقترب أتباع القرين من صلاح.

يغمض صلاح عينيه وتنساب لعقله كلمات خطيبته وهي تتركه: «صدقني يا صلاح، نحن لا نصلح لبعض»، ويتذكر خطاب فصله من العمل منذ أعوام: «نحن لسنا مناسبين للتواجد في نفس بيئة العمل سويًا»، تلك كانت كلمات مديره المرسلة إليه برسالة غير مبالية، يتذكر ابتسامة أخته له ولحظة فراقها، ويشعر بالحرية، يغمض صلاح عينيه وهم ينقضون عليه.

***

الفصل الخامس

تنظر ناردين في ساعتها، لقد تأخر صلاح كثيرًا، تنظر للأمطار والسماء الملبّدة بالغيوم، يغمغم هشام: أنا أكره هذا الطقس.

- أنا أحب العواصف، أشعر دومًا كأن العاصفة هدية لنا من المجهول، الأمطار والبرق والرعد يحملون مئات المسوخ ورسل الظلام بين طياتهم.

ينظر لها هشام بطرف عينيه وهو يدير مقود السيارة: خيال الكُتاب.

- لهذا اخترتني لمساعدتك؟

يتنهد هشام قبل أن يقول: أنا فقط أعرف أنها بريئة.

قبل أن يكمل: من بين كل الأوقات اخترنا هذا التوقيت للذهاب لسجن طرة.

- اسمعني جيدًا، لقد قضيت ساعات أبحث وأفكر، وهذا هو الدليل الذي

وجدته بعد ساعات من البحث على وسائل التواصل الاجتماعي والمنتديات والمواقع الإخبارية، كان عليّ أن أجد نمطًا ما، عندما تتعقد الأمور لا بد أن تبحث عن نمط، هذا ما يفعله فيليب مارلو(5) دومًا.

- من؟

- محقق في سلسلة قصص رايمون.. اه.. لا يهم، المهم أن هناك دومًا نمطًا مكررًا، التاريخ يعيد نفسه لسبب واحد، وهو أننا لا نتوقع منه أن يفعل ذلك كما كان يقول أحمد خالد توفيق، ولذا علينا البحث عن النمط المتكرر، وهذا ما استهدفته، أن أجد جريمة مماثلة وقعت كمقتل كامل واتهام رنا، وأشرف الغندور هو النمط المتكرر، هذا ما توصلت إليه وأنا ساهرة مرهقة أتحدث مع خيالاتي للوصول لشيء ما، رجل متهم قتل زوجته وابنه ويصر على أن البعبع هو الذي قتلهم، تمت إدانته وموعد إعدامه الأسبوع القادم، أمر غريب للغاية أن يصل إليه فريق من المحققين الهواة قبيل إعدامه بسبعة أيام لو أردت رأيي.

- لا زلت أعتقد أنه خيط رفيع للغاية.

- هذا هو أفضل الخيوط المتاحة الآن.

تقولها ناردين بضجر لتعلن أنها لا تريد النقاش الآن، وهي تتذكر جلستها الطويلة مع جين ماربل وهولمز وبوارو، والحقيقة أنها بحثت عن النمط المتكرر بسبب نصائح السيدة العجوز المقيمة في هذا الركن الخاص من مخيلتها.

يتوقف هشام بسيارته ويترجل الاثنان أمام سجن طرة، تتصل ناردين برقم ما لتتبادل حديثًا مقتضبًا معه قبل أن تنظر لهشام، يقول لها: شيء متعلق بنا؟

- هذا مدحت.. خطيبي السابق.. لا يزال مدينًا لي بخدمة أو اثنتين، هو الذي سيدخلنا لمقابلة أشرف.

- أهو ضابط شرطة؟

يقولها هشام بطمع آملا في مزيد من المساعدة من مدحت، لكن ناردين تهز رأسها نافية، قبل أن تقول: أو يمكن قول هذا، هو طبيب برتبة مقدم في المؤسسة.

- المؤسسة؟

- أعني السجن.. لا أعلم لماذا يدعونها دومًا بالمؤسسة، اه.. ها هو ذا.. هيا بنا.

***

يطفئ مدحت لفافة التبغ ويكرر لناردين وهو يتحدث معها في جانب بعيد عن هشام: هذه المقابلة غير رسمية، أمامكم ربع ساعة معه على أقصى تقدير.

- أنا لا أريد أن أتسبب لك بضرر في عملك يا مدحت.

- لا ضرر.. لا ضرر جسيمًا على أية حال، لا أحد يهتم بأشرف الغندوري، لا أهل ولا أصدقاء، لا أحد يهتم برجل على وشك أن يُعدم، تلك طبيعة الناس في الإنكار أو محاولتهم للهروب من فكرة الموت، لكني لا أريد اية مشكلات حتى لو كانت من النوع الطفيف.

- حسنًا.. شكرًا يا مدحت.

ينظر مدحت لناردين نظرة لا تخفى على الأخيرة، ترتبك وهي تعلم الجزء القادم ولا تتمناه، يهمس مدحت: لقد افتقدتك.

- مدحت.. اه.. شكرًا.

يشير الفتى برأسه لهشام ويقول: أتمنى أن يكون هذا الأحمق زميلا لك فحسب، وإلا أوسعته ضربًا.

تهز ناردين رأسها وهي غير مدركة لما يجب قوله، كان دومًا يربكها

بمزاحه هذا خصوصًا عندما لا تعرف إن كان يمزح أم يتحدث بجدية، تهز رأسها له قبل أن تقول: شكرًا.

ينظر لها مبتسمًا، يحبها دومًا عندما تكون طفلة مرتبكة، وبغضب تفكر ناردين أنها الشخص الأكثر ارتباكًا في العالم.

وعندما تذهب ناردين لهشام ويهمان بالدخول لمقابلة أشرف في غرفة الظابط المنوط بالنوبة المسائية، يهمس هشام لناردين: اه.. يبدو كرجل متعاون.. خطيبك هذا.

- خطيبي السابق، هو إنسان جيد نعم، ومن فضلك لا تسألني عن أسباب انفصالنا ولنركز في المهمة الماثلة أمامنا.

يحمرّ وجه هشام في خجل، فتكتم ناردين ضحكتها، يوجد من هو أكثر منها ارتباكًا بعد كل شيء.

***

يومئ الضابط النوبتجي برأسه لناردين وهشام وهما يجلسان قبالة أشرف المقيد بالأصفاد، مدحت يقف وراء الباب، تنظر ناردين لأشرف، شديد النحافة فارع القامة وله عينان زائغتان لا حياة بهما، تتنحنح قبل أن تقول له: أستاذ أشرف.

يقاطعها الضابط: هو لم ينبس بحرف منذ محاكمته.

ثم يتذكر فيضيف ساخرًا: عدا كلمة البعبع طبعًا.

تنظر ناردين للرجل الشارد وتتابع: أستاذ أشرف.. نحن هنا محاولين جمع بعض المعلومات، أنت اتهمت كائنًا خارقًا للطبيعي بقتل أسرتك، ونحن نمثل متهمة أخرى تتهم كائنًا شبيهًا بقتل زوجها، كلاكما...

تصمت ناردين وتبتلع ريقها، هي حقا لا تجيد التخطيط ولم تفكر جيدًا فيما ستقوله لأشرف عندما تقابله، مجرد محاولة مقابلته كانت معرضة بشدة للفشل، ولكن ها هي ذي الآن.. تتنهد وتزفر.. هي تؤمن بقدرتها على

الارتجال، تقول له: أستاذ أشرف، هلا حكيت لنا ما حدث لأسرتك؟

فجأة يبدو وكأن أشرف قد أفاق من شروده، تحركت عيناه ونظر إليها قبل أن يقول: ناردين الصباغ؟

- نعم.

- ابني كان يحب قراءة كتبك.

تصمت ناردين وقد أثلج قلبها، وتشعر كأن حزن أشرف قد تحرر لينتحل كيانًا مستقلا وينتقل إليها، لقد احتضنها حزن الرجل، يتابع أشرف: ما حدث ذلك اليوم كان كابوسًا حقيقيًا.

***

قبل عدة أشهر:

تثاءبت إنجي قبل أن تريح رأسها على كتف أشرف متبسمة، كان يكره بشدة عندما تفعل هي هذا، لكنه كعادته يخفي مقته وغضبه لها وينظر للطريق، يبدو له وكأن الصحراء تبتسم له بسخرية، يفكر: تبًا لك أيتها العجوز، ولا يعلم في الواقع إن كان يتحدث مع زوجته أم الصحراء.

- أبي.. هل وصلنا؟

يزفر أشرف قبل أن يقول لعبد الرحمن: كلا.. كلا أيها الصغير، لم نصل بعد، الحقيقة أنه لا يهتم سواء وصلوا أم لا، ثلاثة أعوام وهو على تلك الحالة، لا يشعر سوى بالغضب وهو مع عائلته، منذ أن قابلها هي، يهدأ بمجرد التفكير بها، رائحة عطرها وطعم شفتيها، يغمض عينيه في نشوة وسعادة، تضغط إنجي برأسها على كتفه مبتسمة، لماذا لا يشعر بالذنب؟ على أية حال هو ليس مذنبًا سوى بأفكاره، دومًا يعاملهما أفضل معاملة، أو يتظاهر بهذا على الأقل، ويوفر لهما كل احتياجاتهما، لم يضربها ولم يمس الصغير بسوء، هو لم يؤذِ أحدًا، لكنه مرهق وغاضب ويشعر بخمول، معهم هو شخص لا دافع له ولا رغبة في الحياة، حسنا.. ربما هو ليس

مذنبًا بأفكاره فحسب، هو يخون زوجته بعد كل شيء، يواصل عبد الرحمن الرسم على الوريقة الصغيرة، يقول أشرف: ما الذي ترسمه؟ لا تقل لي إنها ذات الرسومات عن البعبع.

- ولكن البعبع حقيقي يا بابا.

يهز أشرف رأسه نافيًا تلك المعلومة ويقول: أرجوك.. لا تعبئ رأسك بهذا الهراء.

- هي ليست أساطير.. البعبع حقيقي.. أنا أراه في غرفتي قبل أن أنام، يقف وينظر لي، ويزورني في أحلامي.

- حسنًا حسنًا.. البعبع حقيقي.

لا فائدة من النقاش مع الأطفال، و... يضغط أشرف المكابح بقوة ويهتف: اللعنة.. ما هذا؟

ترفع زوجته رأسها وتنظر للطريق بقلق، يترجل هو ويقترب من السلك النحاسي الموازي للطريق الأسفلتي، لا يرى الرجل فارع القامة ذا القبعة والخطاف الحديدي في يده الذي انسلّ لسيارتهم، ينحني ليتفقد السلك ولا يرى الرجل وهو يكمم فم إنجي ويغرز الخطاف في صدرها قبل أن يحركه للأسفل بقوة محطمًا قفصها الصدري، أمام عيني عبد الرحمن الصغير، يلتفت الرجل ذو الخطاف وينظر للصغير قبل أن يبتسم.

يقول أشرف محدثًا إياهم: لا شيء.. أحمق ما نسي هذا السلك.

يقف الزوج، في نفس اللحظة التي يهوي فيها الخطاف لينغرز في جسد ابنه.

يعود أشرف للسيارة وتتزايد دقات قلبه وهو يرى الزجاج المهشم والدماء، يسير ببطء ويرى جثتي زوجته وابنه، يسقط علي ركبتيه ويضع كلتا يديه فوق رأسه في صمت، تنساب دموعه، ثم أتى الصراخ وطلب النجدة بعدها، وللمرة الثانية بدا أن الصحراء تسخر منه.

***

- البعبع قتلهم.

يقول أشرف العبارة بشرود لناردين الجالسة مشدوهة أمامه، ابتسامة ساخرة على شفتي الضابط، وتركيز تام يعتلي وجه هشام.

- من هي؟

- ها؟

- من هي عشيقتك يا أستاذ أشرف؟

يعود أشرف لصمته وشروده.

وفي طريقهم للخروج يقول الضابط لناردين وهو يحاول إبهارها: عشيقته لا وجود لها، يقول إن اسمها مريم، حاولنا تقصي أثرها لكنها موجودة بعقله فحسب، لقد سئم الرجل العامل زوجته وابنه وتخيل عشيقة من وحي خياله تنفذ له طلباته وتأتيه بالسعادة، وقتل عائلته ليعيش في وهم أبدي.

تومئ ناردين برأسها في شرود، وبطرف عينها تلمح فان هيلسنج بردائه القديم، يبدو لها كالشخص الوحيد المنطقي من بين كل المحيطين بها في تلك اللحظة، يقول لها: البعبع.. خطاف حاد.. القرين.. يبدو لي وكأننا في مواجهة نفس الكيان، شيء ما يقتل ويستمتع برؤية كبش الفداء يُعدم لجريمة لم يرتبكها، ربما نحن نواجه الشيطان تلك المرة.

من وراء فان هيلسينج يرفع شيرلوك هولمز رأسه ويهتف: أنتِ قد وجدتِ الخيط، مريم.. الفتاة التي لم تكن، عشيقة أشرف التي لا وجود لها، هي المفتاح لكل شيء، ابحثي عنها.

تشعر ناردين أن رأسها موشك على الانفجار، هي بحاجة ماسة للحديث مع صلاح.. أين صلاح؟

***

تجلس ناردين القرفصاء في شقتها، حاسبها الآلي مفتوح أمامها، عقلها يومض كمنارة في المحيط، تقول الفتاة بصوت عالٍ: حسنًا.. زوجة تقسم إن القرين قتل زوجها، ورجل يقسم إن البعبع قتل عائلته، كلاهما متهم بالجريمة ويواجه الإعدام، فتاة تدعى مريم يدّعي أشرف الغندوري أنها كانت عشيقته، ولكن الشرطة لم تجد لها أثرًا كأنها فتاة من وحي خياله، ترتمي ناردين للخلف مرهقة مستندة بظهرها على الأرضية، لقد قضت اليوم كله تتصل بمعارف أشرف، وذهبت وقابلت بعضهم مع هشام قبل أن ينقضي اليوم، تتذكر مقابلاتها معهم، بعضهم متعاون وبعضهم رفض الحديث معهما على الإطلاق، لكنها استخلصت معلومة واحدة هزت عالمها بأكلمه، أشرف الغندوري كان يقطن نفس البناية التي سكنتها رنا مع كامل، تغمض ناردين عينيها وتفكر: عندما تستبعد المستحيلات أيًا كان المتبقي مهما كان مستبعدًا فهو الحقيقه، هيا فكري، رنا تحدثت عن جلبة بالشقة الخالية فوقها، واشرف يقطن بنفس البناية التي توجد بها تلك الشقة.

تهب ناردين واقفه وتهتف: أكثر الدلائل المستبعدة هي في الأغلب الطريق للحقيقة، تلك الشقة تحمل سرًا ما.

تلتقط هاتفها وتتصل بصلاح، سوف تخبره بما توصلت إليه ويذهبان معًا مع هشام للشقة، هاتفه لا يزال غير متاح، أين ذهب هذا الأحمق؟ تتصل ناردين بهشام، هو يقطن في البناية، وهو أكثر من يستطيع مساعدتها في استخلاص المعلومات عن الشقة المهجورة في تلك اللحظة.

يبتلع هشام ريقه، يواجه دومًا غصّة في الأحاديث الطويلة خصوصًا مع الفتيات، هو حقا أبعد ما يكون عن الكائنات الاجتماعية، وهو يعلم هذا جيدًا، يقول لناردين في نهاية المكالمة: حسنا أنا في انتظارك.

وينهي هشام المكالمة، ومن ورائه يتحرك ظل الشخص الجالس في غرفة نومه.

***

تترجل ناردين من سيارة أوبر وتقف أمام البناية وتنظر في ساعتها، السابعة مساءً، اليوم طويل وبلا نهاية، بعد دقائق يخرج لها هشام من البناية ويتجه الاثنان لمقابلة حارس العقار، رجل ريفي متذاكٍ يرى كل هؤلاء المدنيين فرصة لاقتناص الأموال، عيناه تلتمعان دومًا كأنه يوشك على الانحناء والهمس بنميمة تخص فضيحة أحدهم في أذنك لو نقدته ما يكفي من المال، يهز الرجل الأسمر رأسه ويضرب كفا بكف قبل أن يقول لهما متظاهرًا بالحزن: من كان يصدق؟! أستاذ كامل وأستاذة رنا! لا حول ولا قوة إلا بالله.

قبل أن ينظر نظرة لامعة لناردين وهشام، قبل أن يبتسم بخبث قائلا: مبروك على الخطبة يا أستاذ هشام.

يهز هشام رأسه بارتباك ويغمغم بتلعثم: اه.. كلـ.. كلا في الواقع...

تقاطعه ناردين بحزم محدثة الحارس: إذًا أنت تؤكد أنك لم ترَ أبدًا أي شيء مريب يحدث منذ زواجهما.

- كلا يا أستاذة، وهذا ما أخبرت به المباحث، وأنا طبعًا أرحب بالحديث مع الصحافة من أمثالك، ولكني..

تنقده ناردين المال في صمت فيقسم إنه لم يقصد هذا ولا يريد متاع الحياة الدنيا، قبل أن يدسّ النقود في جيب جلبابه ويقول: ذات مرة أستاذة رنا سألتني عن الشقه ٢٠٧ .. وحينئذ أخبرتها أنها مهجورة.

- من كان يقطن تلك الشقة فيما سبق؟

- الشقة مهجورة منذ أعوام، آخر قاطنيها رجل يدعى حاتم، مع زوجته الأستاذة منى، ولكن بعدما توفيت زوجته رحل الأستاذ حاتم.

وضحك حارس العقار مكملا: يقولون إنه عضّ التراب بعدها.

نظرت إليه ناردين بتعجب قبل أن تقول: إذًا الشقه مهجورة منذ أعوام.

- نعم يا أستاذة.

هنا تنظر ناردين لهشام فيقول الأخير للحارس: علي.. نحن بحاجة لمفتاح تلك الشقة.

- لكني لا أمتلكه و...

- الشقه بلا مالك، إذًا فهي ملك للشركة العقارية، وأنت تعمل لدى الشركة، أنا واثق من كونهم تركوا لك مفتاحًا.

- أقسم لك إني لا أمتلك مفتاحًا، ولم أدخل الشقة منذ أعوام.

يبدو وكأنه صادق ولا يتفاوض من أجل المزيد من الأموال، فيرحل الاثنان، تقول ناردين: هذا الرجل مثير للمتاعب وسيرى أننا صيدة بالنسبة إليه، وسيتبع فضوله لمعرفة ما نريد.

- ألا تعتقدين أن قصة أنك صحفية قد انطلت عليه؟

- لا أعلم.

تقولها ناردين متنهدة، قبل أن تنظر لهشام وتقول: نحن حقا بحاجة لدخول تلك الشقة.

يهز كتفيه قبل أن يقول: ولكن كيف؟

تنظر له ناردين بنوع من خيبة الأمل، هو رجل تقليدي للغاية بالفعل، لو كان صلاح معها لذهب الاثنان واقتحما الشقة بشكلٍ ما، أين أنت يا صلاح؟ تنظر ناردين في ساعتها قبل أن تقول: علينا أن نبحث عن مريم.

تذكر انك حملت تلك الرواية من موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والنادرة والجديدة

يهز هشام رأسه قبل أن يقول: لقد اتصلت ببعض المعارف ومعي بعض أرقام وعناوين معارف أشرف الغندوري.

- اليوم لم ينته بعد، لنتواصل معهم.

يهز هشام رأسه لناردين، ولا يرى أي منهما ظل الشخص الذي ينظر إليهما من تلك النافذة في الطابق السابع، بالأخص نافذة الشقة ٢٠٧ .

***

الفصل السادس

في غرفتها ترقد رنا على الفراش، مرتدية الرداء الأبيض الخاص بالمرضى، وجهها رطب بدموعها الجافة، تتنهد رنا، وتشعر بهذا الثقب إياه في صدرها، هذا الثقب الناجم عن الحزن، هذا الكيان الخام الذي يأتيك بغتة ويمكث في قلبك ليجعلك بلا روح، يسلب طاقتك ويلتهم شغفك، يقيد أحلامك ويعرضها في محاكمة عامة أمام الشعب قبل أن يعدمها واحدًا تلو الآخر وسط تهليل العامة، لقد فقدت رنا أحلامها واحدًا تلو الآخر، قاسية هي تلك الحياة ومخادعة، لقد وعدت رنا بزواج ومستقبل وحياة أقصى قلقها فيها كان الحمل والولادة وأماكن السفر والمفروشات، لكنها الآن ترقد في مستشفى للمرضى النفسيين مقيدة الأوصال وتنتظر حكم إعدامها.

لقد رأت الموت أمام عينيها، وتغير كل شيء بعدها، رؤية جثة زوجها كانت كلحظة ظهور الشيب في شعر كهل للمرة الأولى، تلك اللحظة القاسية التي تخبرك أن كل شيء قد تغير، وبالفعل قد تغير كل شيء، تقضي لحظاتها تبكي وتصرخ وتضغط على رأسها بيديها حتى لتكاد تهشّمها محاولة إيقاف كثرة التفكير والهوس بما حدث لها، موت والدتها وأخيها وزوجها، اتهامها بالقتل، كونها وحيدة ومنبوذة في تلك اللحظة بعدما كانت شخصًا نشطًا في المجتمع، لقد لفظتها الحياة خارج المعادلة، تغمض رنا عينيها وتئن في ألم مغمغمة: العالم مكان سيء، العالم مكان سيء.

ولا تعلم متى ولا كيف خلدت الفتاة للنوم.

في الحلم كانت تسير في غابة مقفرة، ترتدي فستانًا أسود، القمر مكتمل، وهناك كوخ على أطراف الغابة أمامه بحيرة، تسير رنا بقلبٍ واجم تجاه الكوخ، وترى زوجها يرتدي بذلة الزواج ويحمل وردًا بين يديه، ينظر إليها مبتسمًا، وجواره تقف والدتها تلوح لها دامعة العينين من السعادة، يختلج قلب رنا وتشعر بسعادة هائلة، ترى أخاها جوارها فترتمي في أحضانه ليستقبلها ضاحكًا، تهمس له باكية: لا تتركوني أبدًا.

لكنها تراه يقترب من بعيد، كمال الآخر.. الشبيه، عيناه حمراوان ومخالبه طويلة، كثيف الشعر ويبدو كرجل الغاب، لكنه شبيه زوجها، بإمكانها تمييز هذا جيدًا، يصطبغ لون القمر بلون الدم وتتلون السماء كلها باللون الأحمر وتمطر دماءً، وتطفو جثث والدتها وكمال ومحمود في البحيرة، فتلتفت حولها ولا تجدهم، هم في البحيرة الآن، يقف الشبيه أمامها ويجذبها تجاهه، يفتح فمه فترى أنيابه الطويلة وهي تقطر دمًا، تصرخ رنا، تصرخ بلا توقف قبل أن تفتح عينيها وتعتدل من رقدتها، تنظر لانعكاس ظلها على الحائط، وتواصل البكاء.

***

راقدًا على فراشه يحدق هشام في السقف، وهو عاقد كلتا ذراعيه حول رأسه، يغمغم لنفسه بخفوت: ليل طويل لا ينتهي.

كان يفكر في رنا ويحاول تخيل ما تشعر به الآن قبل أن يغمض عينيه، طيلة عمره شخص مختلف في نظر الجميع، البشر لا يسامحون المنطوي والمنعزل أبدًا، يرى دومًا نظراتهم المتهكمة تجاهه، يرى نفسه وهو طفل نحيف في المدرسة يعدو بعيدًا عن المتنمرين وهم يسخرون منه، يعرقله أحدهم فيسقط أرضًا باكيًا، لم يجد الونس سوى مع الكتب، والسينما الفرنسية، لقد حلم كثيرًا مع آلان ديلون وموريك لبلان، وتخيل نفسه بطل كدارتينيان يغامر ويعيش مستمتعًا بالحياة، ولكنه كان يعلم أن تلك أهوام، وقد أجاد هشام توظيف أوهامه تلك جيدًا عندما أصبح كاتبًا.

لكن مشكلته الوحيدة التي لم يستطع معالجتها هي علاقته بالأنثى، لم

يرتبط أبدًا في حياته ولم يكوّن أية صداقة مع فتاة، ظلت الأنثى كائنًا غامضًا مهيبًا بالنسبة له، يرتجف هلعًا من مجرد فكرة الاقتراب من إحداهن، وبكل طاقة الحرمان بداخله أصبح كبركان عاطفي موشك على الانفجار كلما تحدث مع فتاة حسناء، شعر بتلك الرهبة أول مرة تحدّث فيها مع ناردين والعديد من الفتيات غيرها، لكن رنا كانت تختلف، حقيقة أنها هي وزوجها نظرا له نفس نظرات التهكم والسخرية التي ينظر بها الأغلبية له، وذكّرته تلك النظرات بالمتنمرين في مدرسته، لكنه رأى بعض التعاطف في عيني رنا، لم تكن نظرات شفقة، ولم تكن نظرات «آه.. أنا أشعر بالأسى من أجلك أيها الرجل الحزين غريب الأطوار، لكني سوف أنساك بعد دقائق»، كلا.. كانت نظرات من طراز «أنا أعرف بم تشعر.. عليك أن تكون قويًا»، ولم ينس هشام أبدًا نظرة جارته المتزوجة، وها هي ذي الآن، أرملة وحيدة حياتها معرضة للخطر، عليه أن يكون فارسًا مغوارًا كدارتينيان ويهب لإنقاذها، يغمض هشام عينيه محاولا التخلص من الأرق ويغمغم لنفسه: دارتينيان.

***

- تبًا تبًا تبًا.

هتفت ناردين بالكلمة ثلاث مرات وهي جالسة القرفصاء في شرفتها ناظرة للقمر وهاتفها في يدها، تحاول الاتصال بصلاح عدة مرات دون جدوى، قبل أن تهتف بحنق: أين أنت أيها الأحمق؟

القلق يمزقها تمزيقًا، أطلقت سبّة قبل أن تتصل بمدحت وهي تفكر: سوف أقتلك بنفسي يا صلاح لو كنت قد نسيت شحن هاتفك.

أتاها صوت مدحت النائم، والذي انتبه فور سماع صوتها، بارتباك حاد هتفت ناردين: آسفة لأني أتصل بك في مثل هذا التوقيت، لكني أعتقد أنّ شيئًا ما خطيرًا قد حدث لأحد أصدقائي، ربما كان عليّ الاتصال بالنجدة، لكنك ضابط شرطة بشكل ما و.. مدحت.. تلك القضية التي أخبرتك عنها، لقد ذهب محقق خاص للحديث مع مدام نجوى والدة القتيل، وقد اختفى

منذ ذلك الحين.

- محقق خاص؟ لا وجود لمثل هؤلاء في مصر، جميعهم نصابون يا ناردين و..

- أنا أعرفه بشكل شخصي.

لم يفت عليها نبرة الغيرة في صوت مدحت وهو يقول لها: اه هه.

- أعلم أني أطلب الكثير، لكني حاولت الاتصال برقم مدام نجوى ولم يكن هناك اتصال.. أقصد.. الخط خارج الخدمة ولا يوجد شبكة.

- تريدين مني الذهاب في منتصف الليل وتفقّد المكان يا ناردين؟

- أنا حقا آسفة.. انسَ أني اتصلت.

- انتظري.

يزفر مدحت قبل أن يقول:

- لماذا لا تريدين جعل الأمر رسميًا والاتصال بالشرطة؟

- أنت تعلم جيدًا أنهم لن يستجيبوا بالسرعة المطلوبة.

- كما أنك لا تريدين أن يوقف أحدهم تحقيقك غير الرسمي شديد السخافة هذا.

تصمت ناردين شاعرة بالإهانة، يردف مدحت: أعطني العنوان وسوف أذهب في الصباح الباكر.

- حسنا.

في تشكك يقول مدحت: سوف تذهبين بنفسك الآن أليس كذلك؟ أنا أعرف مدى تهورك.

- كلا.

- كاذبة.

- نعم سوف أذهب إلى هناك الآن.

تقولها ناردين بعد حيرة مزقتها وألم في كبريائها، هي لم ترد طلب مساعدة مدحت منذ بادئ الأمر، لم ترد أن تكون من نوعية الفتيات اللاتي يطلبن خدمة من خطيبهن السابق، هي ليست تلك الشخصية، لتعتمد على ذاتها وتذهب لوحدها الآن لتبحث عن صلاح، لكنها أرادت أن تكون حكيمة ولو لمرة في حياتها وتتصرف بشكل منطقي، وهي الآن شديدة الندم على هذا القرار وتتمنى لو أنها لم تتصل بمدحت الذي قال لها:

- أنا أعرف مدى عنادك أيضًا، هل هناك أية فرصة لإقناعك بالانتظار للصباح؟ اه.. لا تجيبين.. بالطبع كلا، عندما تواتي ناردين الصباغ فكرة ما فلا بد من تنفيذها في الحال.

تشعر ناردين أنهما على وشك الخوض في مشاجرات خطوبتهما القديمة مرة أخرى فتصمت، يسود الصمت بينهما قبل أن يقول مدحت: حسنا.. سوف أذهب الآن.

- سوف أذهب معك يا مدحت.

- كلا.. هذا هو شرطي الوحيد، ستظلين في بيتك وسوف أذهب أنا الآن، لو كان هناك خطر ما فلن تتعرضي له.

- وماذا عنك أنت؟

- سوف أتصل بأحد زملائي وسيذهب معي لا تقلقي.

يسود الصمت مرة أخرى قبل أن تقول ناردين: شكرًا يا مدحت.

بعدما تنتهي المكالمة تنظر ناردين لانعكاسها في المرآة بعدما تدخل من الشرفة وتقول محدثة نفسها: حمقاء واتكالية، لم يكن عليك فعل هذا.

قبل أن تجلس حانقة، هي لن تستطيع النوم أبدًا الآن، بعد عشر دقائق تهب ناردين واقفة وترتدي ملابسها، كبرياؤها لن تسمح لها بالجلوس

منتظرة الأخبار، ولن تكتفي بإرسال صلاح ومدحت لهذا المكان الغامض، سوف تذهب هي الأخرى الآن.

***

يرسل القمر ضوءه العابث مبددًا ظلام الليل، ويوقف مدحت محرك السيارة ويترجل من السيارة وكذا يفعل فتحي، يطفئ الأخير لفافة التبغ الماثلة في فمه ويشعل أخرى قبل أن يقول لمدحت: لا أصدق أنك أيقظتني لتذهب لتفقد فيلا.

- أنا مدين لك بخدمة، للمرة الألف دعني أقولها لك، أنا مدين لك بخدمة.

- كان بإمكانك إيقاظي للذهاب لنادٍ ليلي، هذا سيناريو أكثر مرحًا بكثير.

- كف عن تذمرك هذا يا رجل.

يتحسس فتحي المسدس في غمده وينفث دخان سيجارته، ويبدو كأنه يشاور عقله أيصمت أم لا، قبل أن يقول: مهمة غير رسمية من أجل الفاتنة التي تهيم بها عشقًا، نعم أنت مدين لي بخدمة كبيرة يا رجل.

يومئ مدحت برأسه قبل أن يقول: تقدم المسيرة يا سيادة الرائد.

- آه, كنت أعرف دومًا أنه لا يجب عليّ مصادقة ضباط أطباء.

يضحك مدحت ويسير الاثنان صوب الفيلا، يغمغم فتحي: أتمنى أن تكون نجوى تلك فاتنة على الأقل.

- يا إلهي! أكلّ ما تفكر فيه هو النساء؟!

يقف الاثنان أمام باب الفيلا، يرن مدحت الجرس وهو يقول لفتحي: ألا تجد أنه من الغريب أنّ بوابة سور الفيلا مفتوحة؟ المدخل الرئيسي أيضًا.

يربت فتحي على المسدس في غمده قبل أن يقول: لهذا نحن هنا يا صديقي.. لهذا نحن هنا.

ينفتح الباب ببطء وتظهر من ورائه فتاة شقراء نحيفة متوسطة الطول

تبدو وكأنها في العشرينيات، يرفع فتحي حاجبيه وهو ينظر إليها بينما يعقد مدحت حاجبيه.

تنظر إليهما الفتاة متسائلة فيقول فتحي: نحن هنا لمقابلة مدام نجوى.. مباحث.

ينظر إليه مدحت للحظة قبل أن ينظر للفتاة داعيًا ألا تطلب رؤية هويتهما لتكتشف أن فتحي ظابط في المرور ومدحت طبيب في مستشفى السجن، لكن الفتاة لا تنبس بحرف، فقط تبتسم لهم وتتراجع للخلف مزيحة بجسدها الضئيل الباب وتاركة لهما مجالاً للدخول.

تطأ قدم مدحت بالداخل وراء فتحي، وللحظة يشعر مدحت بحماسة مباغتة، لمحه أمل قالت له إنه ربما بعد تلك الليلة تعود الأمور لحالها القديم بينه وبين ناردين، حقيقة أنه قد تركها بعد إصرار أهله على أنها فتاة مضطربة تعيش وحيدة صعبة الشخصية، وقد رضخ أخيرًا لإصرارهم بعد العديد من المشكلات بينه وبينها إثر عنادها وشخصيتها القوية والطفولية في الآن ذاته، لكنه يعلم أن وراء تلك الشخصية فتاة حالمة ورقيقة، وهو لا يزال يحبها، نعم بعد تلك الليلة سيحاول مرة أخرى معها، يعود بتركيزه لمحيطاته الحالية، وجه تلك الفتاة التي فتحت لهما الباب يبدو مألوفًا له نوعًا ما، كأن أحدهم قد وصفها له من قبل، الظلام يحيط بالمكان فيدير فتحي رأسه قبل أن يقول متظاهرًا بالحنكة: ألن تضيئي النور لنا أيتها الصغيرة؟

تتراجع الفتاة وهي تنظر إليهما حتى يبتلعها الظلام، يتبادل فتحي مع مدحت نظرة ذات معنى ويتحسس كل منهما سلاحه، تخرج لهما الفتاة مرة أخرى من الظلام فيشهق الاثنان، وجهها تغير تمامًا، ترتدي قناع شخص ميت وتحمل قوسًا في يدها، ينطلق السهم في ثانية قبل أن يفهم أي منهما ما الذي يحدث، وينغرس السهم في منتصف جبهة فتحي، يتصلب الأخير، وينظر إليه مدحت بارتياع، وقد برزت مؤخرة السهم من وراء رأسه بعدما اخترقه، تنساب دماء فتحي قبل أن يسقط على وجهه

كالبالون المثقوب، وترتفع رأسه مستندة إلى السهم كأنه رسمة في لوحة كابوسية، يرفع مدحت مسدسه وهو يصرخ، في نفس اللحظة يخرج الرجل ذو البذلة من ورائه ويهوي بالفأس في منتصف ظهر مدحت، ينفرس الفأس محطمًا عظام ظهره، ويسقط مدحت أرضًا، ألمٌ عاصر يكتنفه، رقبته تصرخ في ألم جنوني بعدما انفصلت عن عموده الفقري، يبصق مدحت دمًا وهو يحاول الوقوف لكن علاقته بساقيه قد انتهت للأبد، يزحف للأمام، يقف أمامه شخص، وتميز عيناه في لحظاتها الأخيرة الأشلاء البشرية على الجدران في الفيلا من خلال ضوء القمر الخافت، يسري الخدر في جسد مدحت لكنه لا يقلل الألم بل يزيده بشكل ما، يرفع الرجل الفأس لأعلى مرة أخرى قبل أن يهوي به ويشج رأس مدحت الذي همدت حركته تمامًا وشخصت عيناه، وكان آخر ما فكّر فيه مدحت قبل أن يرحل عن عالمنا هو أن تلك الفتاة ذات القوس تشبه وصف أشرف الغندوري لمريم بشدة.

تقف الفتاة جوار الرجل ذي البذلة محيطين بجثة مدحت، ومن بعيد نرى الفتى -ثالثهم- يسير متجها إلى الفيلا من العراء، ينظرون إليه وهو ملطخ بالدماء والقناع على وجهه، ينظر لجثة مدحت وفتحي قبل أن ينظر إليهما ويقف جوارهما، تلتمع في عيني الفتاة ابتسامة وهي تنظر إليه.

ومن بعيد تقترب سيارة الأوبر من الفيلا، وداخل السيارة ناردين وهي تنظر في هاتفها بقلق وتحاول الاتصال بمدحت أو صلاح دون جدوى.

***

الفصل السابع

- أنا بحاجة لأن تنتظرني قليلا.

- بالتأكيد، سوف أنهي الرحلة وأنتظرك على حسابك الخاص، لو كان الأمر سيان بالنسبة إليكِ.

أومأت ناردين برأسها لسائق الأوبر واتجهت صوب الفيلا، كارهة أن تخمن

ما يدور في عقل السائق من شكوك وظنون بها، كلا أنا لست فتاة سيئة السمعة، بل خبيرة ماورائيات تبحث عن أناس اختفوا، لن يتفهم السائق هذا بالتأكيد، ليحترق إذًا ويعتقد ما يعتقده، تصل ناردين للفيلا، الباب موارب والظلام يخيم على المكان فيما يبدو، هي رأت سيارة مدحت وسيارة صلاح بالخارج، لم يرحل أحد منهما من الفيلا، تقف ناردين وتتسارع دقات قلبها أمام الفيلا.

أيًا كان ما يدور بالداخل أو دار بالداخل فهو شيء بشع، هي تدرك هذا جيدًا بين جوانحها، بخطا مترددة تسير ناردين للأمام، يشير لها فان هيلسنج بالتوقف قبل أن يقول: فكري قليلا.. أنت على وشك الدخول لفيلا غامضة اختفى كل من زارها، ولا أحد بالفيلا يجيب على اتصال، ألا ترين أنه من الأفضل أن...

تقاطعه ناردين: لن أعود أدراجي ولن أطلب الشرطة.

- لم أكن لأقترح هذا، كنت سأقترح أن تتسللي من الخلف، ولكن لماذا لا تطلبين الشرطة؟

- لن يدخلوا الفيلا دون إذن نيابة، وسيتغرق الأمر يومًا على الأقل، دعك من فقرة استجوابي في المخفر، كلا.. لن أطلب مساعدة الشرطة.

- حسنًا.. وجهة نظر، لكني لا زلت أقترح التسلل من الخلف، هذا هو أفضل مدخل لو أردتِ رأيي.

جوار فان هيلسنج يقف رفعت إسماعيل وهولمز، كلاهما صامت ومؤيد لما يقوله الرجل، تومئ لهم ناردين برأسها وتفيق من خيالاتها قبل أن تدور حول الفيلا، وبينا عيناها تتفحصان التفاصيل تيقنت الفتاة من أن هناك شيئًا مريبًا قد حدث هنا، زجاج النافذة الخلفية المودية للمطبخ مهشم وهناك دماء عليه، تبتلع ناردين ريقها وتتجاهل دقات قلبها القوية، تشعر كأنها الفأر «جيري» وقلبها يوشك على القفز من صدرها بسبب الخوف كما يحدث له في الكارتون، لكنها تنسل من النافذة وتدخل المطبخ، الظلام يحدق بها من كل صوب، تنحني ناردين وتحسس طريقها في الظلام

باحثة عن مخرج المطبخ، تصل للباب وتلتقي عيناها بالصالة، دقات الساعة الضخمة المعلقة على الحائط تتوالى محدثة نمطًا صوتيًا محطمًا للأعصاب، ترفع ناردين عينيها وتكتم شهقتها، رأس امرأة معلق على السلم، ذراعاها فوق الأريكة، وساقاها يستقران فوق مقعد، ترى ناردين تلك التفاصيل من خلال ضوء القمر، يدق قلبها بصوت عالٍ حتى لتعتقد هي أن كائنا من كان بالمكان سيسمعه ينبض، تحاول ناردين تهدئة نفسها، لم تعلم هي أن تلك صفية الخادمة أو ما تبقي منها، لكنها ميزت جسد نجوى المصلوب على الحائط كأنه زينة في المكان، يتدفق الأدرينالين داخل جسد ناردين، ترتجف يداها، حسنا.. كذا تقول لنفسها.. لقد رأيتِ ما يكفي، عودي أدراجك واخرجي من هذا الجحيم واطلبي الشرطة ولا تتبعي فضولك اللعين وروحك البطولية وتبحثي عن صلاح ومدحت، فترد الفتاة على نفسها: لكن الوقت ليس في صالحهم، ربما هم بحاجة إليّ الآن، تبتلع ناردين ريقها وتخرج هاتفها، تبًا لا يوجد شبكة، هنا تأخذ قرارها، ستخرج من المكان وتولول للشرطة كي يأتوا معها في تلك اللحظة، تلتفت الفتاة خلفها قبل أن تنزوي مسرعة في أحد الأركان، أحدهم يسير وقد دخل المطبخ، رجل فارع القامة يرتدي قناعًا لا تتبين ملامحه في الظلام، يقف أمام الثلاجة شاردًا في صمت، تكتم ناردين أنفاسها وهي منزوية في الركن المظلم محدقة في الرجل، بعد برهة من الشرود يفتح الرجل باب الثلاجة ويجرع المياه، بعدما ينتهي سيلتفت ويراها، لا بدّ أن تتحرك الآن، تستند ناردين بيدها المتصببة عرقًا على الأرض استعدادًا للحبو خارج المطبخ، فتنزلق يدها وتلتقط هي نفسها قبل أن يلامس جسدها الأرض، يلتفت الرجل باحثا عن مصدر الصوت في نفس اللحظه التي تحبو فيها ناردين مسرعة خارج المطبخ وتتدحرج آملة ألا يكون هناك أحد جوارها في الصالة لتستقر أسفل مقعد ضخم، تتكور على نفسها أسفل المقعد حابسة أنفاسها، وتلمح عيناها أريكه ضخمة على مقربة منها، هي بحاجة للوصول لتلك الأريكة والاختباء أسفلها، تلك الأريكة قد أصبحت غايتها الوحيدة في الحياة الآن، تتسع حدقتا عينيها عندما ترى جثة مدحت شاخصة البصر تجاهها على الأرض، تكاد تصرخ لكنها تقبض شفتيها

وتتجمد تمامًا بينما صدرها يعلو ويهبط بقوة، هناك جثة أخرى بجوار مدحت، أيكون صلاح؟ تدمع عيناها وينساب الألم بقوة قادمًا من صدرها لينتشر في جسدها كله، لقد قُتِل مدحت وصلاح، هذا المسخ ذو القناع في المطبخ، أهذا هو كامل.. القرين؟ هنا تسمع ناردين صوت أحد يتحرك فوق المقعد، أحدهم كان يقف طيله الوقت فوق المقعد الذي تختبئ هي خلفه، تجاهد ناردين للاحتفاظ بوعيها، هيا يا ناردين.. أنتِ واجهتِ العديد من الأشياء من قبل وكتبتِ الكثير عن المجهول وهؤلاء القادمين من الظلام، لديك الخبرة الكافية، فقط لا تفقدي أعصابك، تومئ الفتاة لنفسها وهي أسفل المقعد وتقول لنفسها: أنت بخير.. أنت بخير.. فقط كوني هادئة.

فوق المقعد تقف الفتاة مرتدية القناع وتدور بعينيها في المكان متفحصة الزينة البشرية وهي ترقص بنعومة على أنغام خفية.

صوت خطوات أحدهم تقترب من على بعد، هناك شخص ثالث إذًا.. ثلاثة قتلة؟ أحدهم القرين أم ماذا؟ وما الذي يفعلونه هنا؟ آه.. هذا بيت كامل بعد كل شيء، ولكنها لا تفهم شيئًا، هي تكاد تجن.. ما الذي يحدث هنا؟ ولماذا لا يوجد رابط واحد؟ لا يوجد تفسير منطقي واحد لما يحدث هنا، هل قتلوا صلاح حقا؟ تغمض ناردين عينيها وتفتحهما، تحاول إرسال رسالة من هاتفها لهشام لتستغيث به لكن الشبكة لا تلتقط شيئًا، ترى ناردين أقدام الشخص الثالث تقترب وتقف جوارها، تستقر قدماه جوار رأسها أسفل المقعد، يخرج الرجل ذو البذلة من المطبخ، يسير تجاه جثة مدحت، ودون مقدمات يهوي بالفأس على رأسه ليفصلها، تقفز الفتاة من فوق المقعد وهي تحمل سكين طبخ شديد الضخامة في يدها وتساعد الرجل في تقطيع الجثة، أمام عيني ناردين غير المصدقتين، تراقبهما وهما يقطّعان جثة خطيبها السابق، يكاد يتوقف قلبها تمامًا عن العمل وتشعر بإغماءة خفيفة، لكنها تنتفض وتفتح عينيها الدامعتين وهي تراقب المذبحة الماثلة أمامها، يذهب الرجل ذو البذلة وينحني ليلتقط رأس مدحت، ينحني ليصبح في مرمى رؤية ناردين، كل ما يتطلبه الأمر الآن هو أن يلتفت ليراها، يمسك الرأس بين يديه ويعتدل واقفا، لقد فصل

رأسه بضربة واحدة، هذا رجل شديد القوة، يحمل الرجل رأس مدحت ويعلقها جوار مصباح إضاءة، إنهم يزينون المكان بجثث البشر، هنا يعود الرجل تاركًا الفتاة تواصل عملها على جثة مدحت ويهوي بالفأس على الجثة الثانية، تنفصل الرأس بصعوبة تلك المرة، وترى ناردين ملامح صاحب الرأس، إنه فتحي صديق مدحت، يتمزق صدرها، هناك شيء مريع في مرأى جثث معارفك، تتدحرج رأس فتحي بقوه وتستقر أسفل المقعد جوار ناردين، ويسير الرجل صوب المقعد ليلتقط الرأس، يتقدم الفتي الثالث وينحني ليلتقط الرأس من أسفل المقعد ويعطيها للرجل صاحب البذلة، تغمض ناردين عينيها كأن هذا لن يجعله يراها بشكلٍ ما، تظل مغلقة العينين ولا ترى سوى الظلام بانتظار يده كي تقبض على عنقها، لكن شيئًا لم يحدث، يمر وقت الانتظار المهيب، لعله ينظر إليها مستمتعًا بخوفها، وسوف تفتح عينيها لتراه ينظر إليها منتظرًا، تلك الفكرة أخافتها أكثر من يده على عنقها، وفتحت عينيها بسرعة لكنها لم تجد أحدًا، لقد أخذ الرأس وأعطاها للرجل صاحب البذلة، كيف لم يرها؟ تنتفض ناردين عندما يهوي الرجل ذو البذلة بالفأس ليفصل ذراع مدحت عن جسده، الدماء تتدفق وتنهمر، ها هي ذي.. ناردين الصباغ في بيت الرعب مرة أخرى، بيت مزين بالأشلاء البشرية والجثث والقتلة، وعليها قضاء ليلتها معهم، تحاول ناردين التماسك وهي تشعر بالتنميل يسري في جسدها، لا، ليس هذا وقت الشعور بالوهن، تلك التنميلة اللعينة ستمنعها من محاولة الهروب عندما يكتشفون وجودها، تهتف لنفسها بغضب: لو.. لو اكتشفوا وجودك، لا يجب أن تكوني متفائلة هكذا بالله عليك.

هنا ينفتح باب الفيلا ويدخل رجل رابع، ومن خلال إشارات الجسد تراهم ناردين يقفون له في احترام، حتى الفتاة تكف عن عبثها وتقف في هدوء، رائع، أنا أحللهم من أقدامهم، كذا تفكر ناردين وهي تحاول تبين من هو الزائر الرابع، يبدو وكأنه القائد، ربما هذا هو كامل القرين، وهؤلاء هم أتباعه، هل هذا ما فكر فيه صلاح وهو هنا؟ هي تفتقده بشدة في تلك اللحظة.

لا تفهم ناردين ما يحدث، لكنها تجدهم يسيرون وراء الزائر خارجين من الفيلا، أربعتهم، هل رحلوا حقا؟ تظل ناردين أسفل المقعد غير مصدقة، وهنا تلمح الفتاة وهي تسير معهم دون قناعها، وتفكر ناردين: مريم.. أشرف الغندوري ليس مخبولاً.. مريم حقيقية.

يختفون عن ناظريها، تظل ناردين مختبئة أسفل المقعد لنصف ساعة كاملة منتظرة عودة أي منهم، تبكي وتتحدث مع نفسها وخيالاتها حتى لتكاد تفقد عقلها، تنظر لرأس مدحت وتكرر باكية: أنا آسفة، حقا أنا آسفة.

تحرك يدها للخروج من أسفل المقعد، لكن صوتًا ما بداخلها يهتف: لا تخرجي.. ربما تكون خدعة..

قبل أن تأخذ نفسًا عميقًا وتخرج من أسفل المقعد، تعتدل واقفة، تتلفت ناردين حولها وهي تنشج وسط كل هذا الموت والجنون، كل هذا العبث، تغمغم لنفسها وهي ترمق الزبنة الآدمية من حولها: مسرح العرائس.

تخرج ناردين من الفيلا، تخرج من النافذة الخلفية خوفًا من كونهم لا يزالون بالخارج بشكل ما، ومن بعيد ترى سيارة الأوبر، لقد نسيت أمره، أحقا كان ينتظرها طوال كل هذا الوقت؟ تسير ناردين تجاه السيارة بخطوات مرهقة، وتمسح دموعها عن وجنتيها، تصل ناردين للسيارة فينظر لها السائق بعدما كان يعبث على هاتفه، ينظر لحالتها المزرية ودموعها ويرفع حاجبيه، في صمت تفتح ناردين الباب وتجلس بالمقعد المجاور له، تقول له بصوت واهن:

- اذهب بنا لأقرب قسم شرطة.

لا ينطق بكلمة، يومئ لها برأسه ويدير المقود وهو يحاول أن يشير إليها بشيء ما لكنها لم تنتبه، ألصقت ناردين رأسها بزجاج النافذة وأسندت رأسها عليها وأغمضت عينيها وتركت جسدها يهتز ودموعها تهرب، تذكرت خطبتها لمدحت، نظرات أهله المتعالية لم تؤرق بالهما هذا اليوم، كان يحبها حبًا جمًا وهي أيضًا أحبته، في البدء كانت تعتقد أنها تحب حبه لها، لكنها أدركت بعد هذا أنها حقا وقعت في حبائله، بشكل ما استطاع مدحت

إخراجها من شرنقتها التي طالما احتمت فيها من العالم الخارجي، والآن هو جثة هامدة بسببها هي، لن تسامح نفسها مهما حيت على ما حدث له، تشعر ناردين بالغضب، من هم هؤلاء القتلة؟ تعتصر عقلها باحثة عن إجابة، هنا تغمض عينيها تمامًا وتترك نفسها لخيالها, هي الآن تسير مرتدية فستانًا قوطيًا أبيض بين دهاليز عقلها، تحمل مصباحًا قديمًا ينير لها الطريق، تسير بخطا مترددة للأمام لترى شيرلوك هولمز جالسًا القرفصاء وسط الضباب في غرفة مظلمة يدخن الغليون, يشير لها أن تجلس ويقول: فكري.. عندما تتعقد كل الأمور عليك أن تعودي لنقطة البداية.

- تقصد مقتل كامل.

- تلك ليست نقطة البداية، تلك مجرد جريمة أخرى، لكن نقطة البداية بالنسبة لك أنت.

- تتحدث عن أشرف الغندوري إذًا.

- بالظبط.. والآن فكري جيدًا.

تفتح ناردين عينيها وعقلها يدير مكابحه كقطار فحم سريع، أشرف الغندوري يخون زوجته مع فتاة تدعى مريم، كل المعلومات التي أعطته إياها تلك الفتاة عن نفسها زائفة، هي مدعية وقد تسللت لحياته لسبب ما، ربما لكي تدرسه قبل الفتك بعائلته، أو معرفة مكانهم في ذلك اليوم، حسب كلام أشرف فقد قضى معها أعوامًا في علاقتهما، يقع هو في حب الفتاة التي لم تكن، وبعدها يقتل البعبع عائلته، رجل نحيف يرتدي قبعة وله أظافر حادة كالمخالب، يركّب السكاكين في أصابعه حسب وصف أشرف، ويقتل هذا الرجل زوجة أشرف وابنه ويتم اتهام الأخير بقتلهما، أشرف يقطن في نفس البناية التي تقطن فيها رنا المتهمة بقتل زوجها، والتي تؤكد أن قرينه هو من قتله، والآن يوجد ثلاثة من القتلة يرتدون أقنعة، يمثلون بالجثث ويقتلون كل من يخطو داخل بيت كامل، هل القرين حقيقي؟ هل البعبع حقيقي؟ ما هو البعبع حقًا؟ إن البعبع آتٍ.. ذلك جزء من القصة القديمة التي تحكيها الأمهات لأبنائهن عن البعبع، لسبب ما

وعلى اختلاف ثقافات شعوب العالم كله، لكن هناك دومًا صفة مشتركة واحدة، حكايات ما قبل النوم المخيفة التي يحكيها الآباء لأولادهم، في إنجلترا يحكون عن خيال المآتة والرجل الذئب، في روسيا يحكون عن صاحب القدم الكبيرة، وفي المكسيك يحكون عن الكوكو وملاك الموت، وفي مصر يحكون عن أمنا الغولة وأبو رجل مسلوخة والبعبع، لا تعلم ناردين السبب لهذا، لكنها تعلم أن الخوف جزء من وجدان الشعوب بأكملها، وأن الآباء يرسخون تلك الحكايات في عقل أطفالهم، البعبع كائن وهمي يخيف به الآباء أبناءهم، لو فعلت شيئًا خاطئًا فسوف يأتي لك البعبع، تتنهد ناردين، هناك دومًا ألفة وراحة في خيالها، تفكيرها الحالي هو الشيء الوحيد الذي سيساعدها في الهروب من أهوال الواقع الذي شهدته للتو.

البعبع آت من أجلك، أجّل أحلامك كلها.

اختبئ أسفل أغطيتك، لا يوجد وقت للأحلام.

البعبع قادم من أجلك الآن.

تمتمت ناردين بأبيات القصيدة التي ألّفتها وهي شاردة، يحاول سائق الأوبر الإشارة إليها مرة أخرى، فتنتبه إليه وإلى حقيقة أنه يلفّ في دوائر، تنظر لهاتفه فتجده قد كتب لها رسالة علها تفهم:

«هناك قاتلة تختبئ في المقعد الخلفي، ومعها سلاح، لقد أجبرتني على انتظارك».

تنظر إليه ناردين بفزع، لم يرحلوا.. لقد وجدوا السيارة وأدركوا أنها هنا، وانتظروها.. وأحدهم معها الآن في السيارة.

***

الفصل الثامن

يدير الرجل ذو البذلة مقود سيارته ويتلفت الشاب حوله باحثا عن الفتاة، لكنه لا يجدها، ينظر للرجل ذو البذلة الذي لا يلتفت إليه ويدير المحرك،

ومن على بعد تتجه الفتاة نحو سيارة الأوبر والسكين يلمع في يدها على ضوء القمر.

***

تنظر ناردين في انعكاس مرآة السيارة والسائق يقود في توتر، وخلفهما تنبطح الفتاة قابضة على السكين في يدها، موجهة إياه لظهر المقعد الخاص بناردين، بعد دقائق ستخترق السكين وتمزق ظهر ناردين، هنا تضحك ناردين، تضحك فجأة بصوت عالٍ وهيستيري، ينظر لها السائق في غباء، وتعقد الفتاة في الخلف حاجبيها محاولة فهم سبب الضحك، تهتف ناردين بصوت عالٍ وهي تواصل القهقهة: أنا أعلم أنك بالخلف، وقبل أن تقتلني عليكَ أن تعلم أني قد فهمت كل شيء.

يتمتم السائق لناردين: هي ليس هو.

تلتفت ناردين إليه قبل أن تأخذ نفسًا عميقا وتلتفت وراءها، تقفز الفتاة بسرعة صوب ناردين ملوّحة بالسكين، فتقبض الأخيرة على يدها، يضغط السائق المكابح بقوة ليوقف الاثنتين، فيرتد جسدها للخلف وتصطدم بالزجاج الخلفي، تقفز ناردين بخفة لم تتوقعها وتدفع الفتاة بساقيها بكل قوة، لتندفع الفتاة بقوة مهشّمة الزجاج بجسدها وتسقط خارج السيارة، فور أن ترتطم الفتاة بالأرض تنطلق قدم السائق لتضغط على الدواسة وتندفع السيارة للأمام محدثة صريرًا صارخًا، تنظر ناردين وراءها وترى الفتاة وهي تعتدل واقفة، بعض من الزجاج قد جرح وجهها، تظل الفتاة ثابتة في مكانها تنظر إليه بينما تبتعد السيارة أكثر فأكثر.

تمد الفتاة يدها وراء ظهرها وتخرج شيئًا ما لا تتبينه ناردين في بادئ الأمر، قبل أن تغمغم مبهوتة: يا إلهي!

تشد الفتاة القوس للخلف، وفي جزء من الثانية ينطلق السهم في نفس اللحظة التي يزيد فيها السائق من سرعة السيارة ويهتف غير مصدق: يا للجنو...

لا يكمل كلمته عندما ينفرز السهم في مؤخرة جمجمته وينبثق من عينه، يتصلب قبل أن يسقط للأمام على المقود، وتتمايل السيارة يمينا ويسارًا بسرعة جنونية، تمد ناردين يدها مسرعة محاولة الحفاظ على اتجاه السيارة، ولكن جسد السائق يعيقها، تشعر ناردين كأنها فأر حبيس في مصيدة قط عابث، تشعر بالوهن والعجز وهي داخل السيارة، تحاول أن تزيل قدم السائق وتضغط على المكابح بينما كلتا يديها على المقود، السيارة تندفع بسرعتها الخارقة صوب شجرة ماثلة أمامهما، تدير ناردين المقود بسرعة لتفادي الشجرة، وهنا تنقلب السيارة، يخفق قلب ناردين بقوة، وترتد للخلف بينما السيارة تميل جانبًا قبل أن تحلق مبتعدة عن الأرض لثواني، وفي تلك الثواني أغمضت ناردين عينيها، سوف تموت أو تخرج بإعاقة أبدية، لن تخرج سليمة أبدًا، وفي تلك اللحظة يمر شريط حياتها كاملا أمام عينيها، رحيل والدها، موت أخيها، ابتسامة والدتها، حفل الخطوبة مع مدحت، ليالي الأرق بعد انفصالهما، أول رواية نشرت لها، ثاني رواية نشرت لها، حفل التوقيع، لحظة لقائها الأولى بصلاح، ترتطم السيارة بالأرض ومعها رأس ناردين، وتظلم الدنيا من حول الفتاة.

***

صوت زجاج مهشم، رائحة وقود، شيء رطب من حولها، ظلام جاثم يحتضنها، بصعوبة تفتح ناردين عينيها، وتتأوه وهي تفعل هذا، تغمض عينيها مرة أخرى بسرعة بعدما أدركت أن هناك قطع زجاج متناثرة على جفنها، تحرك يدها لتزيل الزجاج فتتأوه بشدة وهي تفعل هذا لسبب الألم الحارق الذي امتد بطول ذراعها كله، تحرك يدها الأخرى وتزيل الزجاج وتفتح عينيها، السيارة منقلبة وقد تحولت لكتلة من العجين المعدني، وهي الآن أحد قاطني مدينة العجين تلك، القاطن الوحيد فيما يبدو، جوارها جسد السائق وقد تهشم رأسه تمامًا، تغمغم ناردين وهي تنظر إليه: أنا آسفة.. تحاول أن تعتدل لكن ألمًا عاصفًا يطبق على رقبتها ويعيق حركتها، تنظر إلى ساقيها، هل تحاول أن تحركهما؟ ماذا لو لم يستجيبا لها؟ عليها أن تحاول.. لا بد أن تحاول.. تحاول الاستناد بذراعها على ما

تبقى من سقف السيارة وتحرك ساقها للأمام ببطء، آه.. لقد تحركت، حمدًا لله، لم تشل، حسنا.. الألم قوي في جسدها لكنها لا تصرخ بسببه، وهذا يعني أنه لا يوجد كسور، أو هذا ما تتمناه هي على أية حال، تحاول ناردين الاعتدال عندما تمتد يد الفتاة من النافذة وتقبض على شعرها، وتجذبها للخلف بقوة، تصرخ ناردين ألما والفتاة تفعل هذا، لا يزال هناك خدر في جسدها وعيناها زائغتان بشدة، ومن خلال رؤية ضبابية ترى ناردين الفتاة وهي تجرها على الطريق الخالي بعيدًا عن السيارة المهشمة، تجرها بقوة وسرعة قبل أن تتوقف، تسعل ناردين وتحاول الاعتدال فتصفعها الفتاة بقوة ليرتد رأسها للخلف مرة أخرى ويصطدم بالأرض، آه.. يا لكل هذا الألم! تغمض ناردين عينيها وتصرخ، هل تهشمت رأسها؟ تشعر وكأن رأسها تحولت لطبلة بين يدي الهنود الحمر، تواصل ناردين الصراخ والألم يتزايد، تجلس الفتاة فوق ناردين، وتضع أصبعها على فمها طالبة منها الصمت، تحدق ناردين بالفتاة، رؤيتها ضبابية بشدة، تلقي ناردين برأسها للخلف ببطء وإرهاق، وتواجه بعينيها القمر، لا تعلم إن كان غير مبالٍ أم متعاطفًا معها، لكنها تعلم جيدًا أنها خائرة القوى، لن تستطيع مقاومة تلك الفتاة، سوف تذبحها الأخيرة الآن وهي غير قادرة على فعل أي شيء، إنها النهاية، لقد نجت من السيارة لتلقى حتفها على يد تلك القاتلة، تحاول ناردين أخذ نفس عميق لكن صدرها يؤلمها بشدة، وتشعر أنها غير قادرة على أخذ أنفاسها فتتنفس ببطء شديد، هل تهشم قفصها الصدري أيضًا؟ حسنا لن يكون هناك وقت أبدًا لمعرفة هذا، لقد قتلوا صلاح ومدحت، والآن دورها، ولن يفهم أحد أبدًا ما حدث، وسيعيش هشام كالتعس بعدما يعدمون رنا، وسوف يعدمون أشرف الغندوري أيضًا، كل هذا الموت، كل هؤلاء الضحايا، لأي سبب؟ تغمغم ناردين ببطء والفتاة تجلس فوقها وتنظر إليها: الشقة.

ولا تكمل، لكنها تواصل التفكير، أيًا كانت الثواني الباقية في حياتها، فمن حقها محاولة الفهم، لقد قرأت فيما سبق في رواية «قرية سالم» عن البيت الذي يجذب الشرور، بيت ملعون به طاقة شر كامنة، وهذا البيت يجذب المسوخ بشتى أنواعهم لقرية سالم، ربما تلك الشقة المهجورة في

البناية مثل هذا البيت في الرواية، الشقة قد جذبت البعبع والقرين، الأول فتك بعائلة أشرف والثاني قتل كامل، وتم اتهام البشر الغافلين بالجرائم، ربما هؤلاء القتلة في فيلا نجوى هم بشر فاسدون جذبتهم قوى الشر في الشقة، وتحكمت في عقولهم وأرسلتهم لقتل باقي عائلة كامل، لعل كامل وأشرف قد مرّوا أمام الشقة أو شيء ما، وتم اختيارهم، لقد تحدثت رنا عن أصوات مرح وأثاث يتم نقله فجرًا داخل الشقة، ربما تلك الأصوات في الواقع هي حياة المسوخ والشياطين الماجنة داخل الشقة، ستظل هناك أسئلة غير مجابة، لماذا ظهرت مريم في حياة أشرف؟ ولماذا هذا التوقيت بالذات لذبح نجوى في فيلتها؟ لكن لا بأس، الوقت لن يسعفها للعثور على كل الإجابات، لقد عرفت بما يكفي والتفسير ملائم بشكل ما لكل ما حدث، سواء كان حقيقيًا أم لا.. لكنه يكفي، هي لن تموت بلا تفسير، سعلت ناردين، أفكارها لم تستغرق سوى ثوان معدودة، مسحت الفتاة بالسكين علي وجه ناردين في رفق، قبل أن تقبض بيدها علي شعرها وتضع السكين على رقبة الكاتبة، من خلف الفتاة تتوقف سيارة، الرؤية زائغة بحق لكن -وبطرف عينها- تميز ناردين السائق وهو يترجل من السيارة، الرجل ذو البذلة الكحلية، ومن المقعد المجاور له ترجل الفتى، كلاهما يرتدي الأقنعة بعكس مريم، إن كان هذا هو اسمها الحقيقي، تنساب الدموع على وجنتي ناردين، سيقتلونها ويمثلون بجسدها كما فعلوا مع مدحت وفتحي ونجوى، يتزايد الإرهاق في جسدها، تفتح يدها في استسلام وتغمض عينيها، وداعًا أيها العالم، لقد كان من الجيد قضاء بعض الوقت بك، بعض لحظاتك كانت عابثة، لكنك أعطيتنا القليل من المرح ولن يستطيع أحد إنكار هذا.

***

البعبع آت من أجلك، أجَل أحلامك كلها.

اختبئ أسفل أغطيتك، لا يوجد وقت للأحلام.

البعبع قادم من أجلك الآن.

***

ينحني الرجل ذو البذلة، ويثبت ساق ناردين ويرفع الفأس عاليًا، يعود وعي ناردين كاملا لها وقد أدركت ما سيحدث، لن تموت بسرعة كما كانت تعتقد، سيقطعونها إربا وهي على قيد الحياة، سيفصلون ساقها عنها وبعدها ذراعيها، وحينئذ.. وحينئذ فقط ستجز الفتاة عنقها، تصرخ ناردين محاولة المقاومة، لكن الفتاة الجالسة فوقها تثبت من حركتها تمامًا، الفتى الثالث يقف وراءهم، ثم يتحرك مسرعًا، يركل الرجلَ ذا البذلة بقوة في وجهه، ويستدير مسرعًا ليغمد سكينه في عنق الفتاة بقوة، تتصلب الفتاة وتنشج وتنبثق الدماء من فمها وعنقها على وجه ناردين، يستدير الفتى مسرعا نحو الرجل الذي اعتدل واقفا بغتة، ينقض الفتى على الرجل ذي الفأس ليسقط الاثنان أرضًا، تعتدل ناردين مبهوتة، بينما الفتى يطعن الرجل في معدته بالسكين مرارًا وتكرارًا بيد ويقبض بيده الأخرى على ذراع الرجل ليمنعه من تحريك الفأس.

في النهاية تهمد حركة الرجل ذي البذلة وتكوّن دماؤه بركة ضخمة حول جثته، يعتدل الفتى واقفا ويلتفت لينظر لجثة الفتاة، تنظر إليه ناردين بتأهب وعدم فهم، يمد يده ويزيل القناع من على وجهه، تتسع عينا ناردين وهي تنظر إليه، وبإرهاق واجم يقول لها صلاح: لم تظني أني سوف أتركك، أليس كذلك؟

***

يغمض صلاح عينيه وتنساب لعقله كلمات خطيبته وهي تتركه «صدقني يا صلاح نحن لا نصلح لبعض»، ويتذكر خطاب فصله من العمل منذ أعوام، «نحن لسنا مناسبين للتواجد في نفس بيئة العمل مهنيًا»، تلك كانت كلمات مديره المرسلة إليه برسالة غير مبالية، يتذكر ابتسامة أخته له ولحظة فراقها، ويشعر بالحرية، يغمض صلاح عينيه وهم ينقضون عليه، أتباع القرين الثلاثة، وقائدهم يقف وسط الظلام يشاهد.

يفتح صلاح عينيه، لا تنس يا سيدي آن تنبطح، يميل صلاح للأسفل

متفاديًا سكين الفتى قبل أن يعتدل ويلكمه بثقل ذراعه كله في فكه، ثم يدفعه بعيدًا ويتراجع للخلف ليسقط أرضًا بعيدًا عن سكين الفتاة، الرجل ذو الفأس يهوي عليه لكنه يتدحرج مبتعدًا ويقف بسرعة قبل أن يعدو دون أن ينظر خلفه، يعدو بكل قوة مبتعدًا عنهم، ينظر إليه الثلاثة قبل أن يتجه الفتى ذو القناع خلفه، يتبادل الرجل ذو الفأس النظرات مع الفتاة ويعود كل منهما أدراجه للفيلا، الفتى قادر على اقتناص هذا الدخيل، يطارد الفتى صلاح، ويصل إليه، لكن الأخير كان غاضبًا بشدة من كل ما حدث، غاضب لموت نجوى، ولتمثيلهم بجسد صفية، غاضب لأنه لم يستطع الوفاء بوعده لها، وهذا ساعده على التغلب على الفتى، لا يعلم كيف، لكنه ظل يلكمه ويتفادى السكين حتى تغالب عليه وأسقطه أرضًا، ظل يواصل اللكمات حتى أفلت الفتى السكين من يده، وحينئذ أخذها صلاح، وتلاقت عيناه بعيني الفتى من أسفل القناع عندما قبضت يده على السكين وانتهى كل شيء بعدها، ظل صلاح يلهث جوار جثة الفتى وهو يتلفت حوله كالحيوان الجريح منتظرًا قدوم الباقي، لكن أحدا لم يأتِ، لقد أرسلوا هذا الفتى فقط خلفه، حسنًا، سيعود أدراجه الآن ويخبر ناردين بما حدث، وليدعا الأمر للشرطة، هنا ينظر صلاح للقناع على وجه الفتى وملابسه، ويتذكر وعده لنجوى، سوف أفهم ما حدث، تلك فرصته الوحيدة للفهم، هناك احتمال ما بأن يختفوا لحين وصول الشرطة، وحينئذ لن يعلم أبدًا حقيقتهم ولا ماهيتهم، دون تفكير يرتدي صلاح قناع الفتى وملابسه، ينظر لوجهه العاري، يبدو كفتى عشريني طبيعي مثله مثل أي أحد، يغمغم صلاح وهو ينظر لجثة الفتى: من أنت؟ يحاول البحث عن هوية أو أي شيء لكنه لا يجد، يتحسس ملابس الفتى على جسده، لن يروا مكان الطعنة الدماء لقد أخفاها بالسروال، يلتفت صلاح وينظر للطريق المؤدي للفيلا.

***

تقف الفتاة جوار الرجل ذي البذلة محيطين بجثة مدحت، ومن بعيد نرى الفتى -ثالثهم- يسير متجها إلى الفيلا من العراء.

***

يتقدم الفتى الثالث وينحني ليلتقط الرأس من أسفل المقعد ويعطيها للرجل صاحب البذلة.

***

يدير الرجل ذو البذلة مقود سيارته، ويتلفت الشاب حوله باحثا عن الفتاة، لكنه لا يجدها.

***

يحتضن صلاح ناردين برفق وهو يساعدها على الوقوف ويقول: هل تستطيعين الوقوف؟

تدفن ناردين رأسها في كتفه ولا ترد، يقول لها: لقد كانوا قتلوا مدحت بالفعل عندما عدت إليهم، لم يكن هناك متسع من الوقت لإنقاذه، كنت بحاجة كي أفهم ما الذي يحدث، ولهذا وبطريقة كابوسية ما تمكنت من تمالك نفسي وأنا أشاهدهم يمثلون بجثث الموتى ويزينون بها الفيلا، لمحتك مختبئة أسفل المقعد، وأخذت الرأس بدلا منه كي لا يراك، عندما رأيتك أدركت أن تمثيليتي القصيرة لن تطول وأن عليّ قتلهم قبل أن يكتشفوا وجودك، لكنهم لم يروك، وأتى بعدها هذا الرجل، كان دومًا موجودًا بشكل ما يراقب من الخلفية، رأيته من قبل عندما هاجموني لكني لم أستطع تمييز ملامحه، هو قائدهم بشكل ما، وخرجنا معه، لم يتحدثوا على الإطلاق، وقد ساعدني هذا بشكل ما على الانسلال بينهم، فقط ساروا وراءه، ودلف الوغد ذو الحلة لسيارته، وظل الرجل ينظر إلينا قبل أن يتجه لسيارة أخرى ويرحل، وتلك المرة استطعت تمييز ملامح الوغد، وبإمكاني وصفه لك، رحل هو وظللت أنا مع الوغد الآخر، هنا أدركت أن الفتاة ليست معنا، ورأيت سيارة أخرى تتجه هي إليها، فافترضت أنها خاصة بهم، كان عليّ توقع أنك أتيتِ بأوبر وجعلتِه ينتظرك، لكني لم أكن أفكر جيدًا، انسلت الفتاة لسيارتك، وتتبعناك نحن وأنا غير مدرك لهذا، لقد عرفوا بوجودك عندما رأوا السيارة، لم أركِ وأنتِ تخرجين وتتجهين

للسيارة، كنت مشغولا بمحاولة تفقد تفاصيل السيارة القابع أنا بها لعلي أجد دليلا ما على هويتهم، شعور غريب أن تكوني على مقربة من سفاح كهذا الوغد، على أية حال، تتبعناك وفجأة وجدت السيارة تنقلب وتلك الساقطة تخرجك من السيارة، يا إلهي! لقد اعتقدت للحظة أنك قد رحلتِ عن عالمنا.

تنظر إليه ناردين برفق وهي ممتنة لأنه لم يستطع استخدام كلمة موت معها، يواصل صلاح السرد: لكنك لا تزالين على قيد الحياة، فكرة أن هؤلاء الأوغاد قد تمكنوا منك لأني تأخرت في إنقاذك، آه.. لا أستطيع حتى الخوض في تفاصيلها، حسنا، وأنتِ تعلمين الباقي.

بصوت واهن تهمس ناردين: لقد اعتقدت أنهم قتلوك.

يهز صلاح رأسه، تتأوه ناردين وتستلقي على الأرض مرة أخرى.

- أنت بحاجة للذهاب للمستشفى.

تهز ناردين رأسها مرهقة، قبل أن تقول: ألا ترى أن الوقت قد حان لفهم كل ما يحدث؟

ينظر صلاح للقمر في السماء قبل أن يقول: لديّ نظرية لا بأس بها.

***

الفصل التاسع

ينفث الضابط دخان سيجارته قبل أن يقول: تريد مني أن أصدق تلك الحكاية؟ ها؟ لم لا تقول شيئًا آخر متذاكيًا أيها المتحاذق؟

وفي غرفتها بالمستشفى المحاطة بأمناء الشرطة يصطف عدد من الصحفيين، وتقول صحفية شقراء ترتدي قميصًا أبيض ضيقًا: وقد أكد الادعاء أنه يتهم ناردين الصباغ وشريكها في قتل السيدة نجوى الشربيني وخادمتها وعدد آخر من الضحايا.

دودة الكتب حرامية

تفيق ناردين من خيالاتها وتتنهد قبل أن تقول لصلاح: حسنًا، أنت محق.. لا يجب أن نورط أنفسنا مع الشرطة، لا نريد أن نكون الجزء الثالث من المتهمين البراء بعد أشرف ورنا.

قبل أن تنظر إليه وتتساءل: ما هي خطتك؟

صمت صلاح عندما دخل الطبيب.

كانت ترقد في الفراش بالمستشفى الخاص، بعد ساعات من الأشعة والفحوصات كانت النتيجة هي كدمات على الضلوع وتمزق في ذراعها، وقد أكد لها الأطباء أنها معجزة أنها خرجت بتلك الإصابات فحسب، وفي تقرير المستشفى الذي ملأه صلاح ووقعه كتب أنها قد وقعت على السلم وهي تحمل لوحًا زجاجيًا ليفسر آثار الزجاج المتناثر عليها، أعطى صلاح الطبيب التقرير، نظر إليه الطبيب قبل أن يقول: نحن الآن متعادلان.

أومأ له صلاح برأسه، خرج الطبيب من الغرفة وبسخرية قالت ناردين: من اللطيف أن يدين لك أحدهم بخدمة.

أعاد إليها هاتفها وقال: كنت متأكدًا أنه لن يتواجد في المستشفى عند وصولنا، رغمًا عن أنه يعمل بها، لكن من الجيد أنه أتى، لقد مارس الاحتيال على التأمين من قبل ليعالج زوجته المريضة.

- وأنت ساعدته؟

- الرجل كان ينقذ حياة زوجته، كنت لا أزال محقق تأمين حينئذ، على أية حال لقد سدد دينه، رغم أني كنت دومًا أرى أنه من المفارقة ألا يستطيع طبيب شاب تحمل نفقات معالجة زوجته غير المؤمن عليها، نحن نحيا في مجتمع غريب.

- لقد استغرقنا وقتًا طويلا للوصول لتلك المستشفى بالذات.

- آه.. لا تكوني مدللة، لقد أكدت حالات الطوارئ في المستشفى الحكومي أنه لا يوجد خطورة في نقلك، وعملية نقلك استغرقت ساعة فحسب.

منتدى مكتبة الكتب مراجعة

- أنت وغد.

تقولها ناردين في سخرية قبل أن تتنهد بحرص كي لا تؤلم صدرها وتقول: ما هي خطتك؟ وما هي نظريتك؟

- الشرطة سوف تكتشف الجثث في الفيلا وعلى الطريق، حقيقي أن قد تخلصنا من أية آثار لنا، ولا أعتقد أنهم سيربطون أية صلة لنا الفاجعة، ولكني أعتقد أن الرأي العام سيثور لتلك المذبحة، وربما الصحف ستتحدث عن هوية القتلى، الثلاثة المقنعين أقصد، هذا سيفيدنا بشكل ما لتأكيد نظريتي، والوقت محدود للغاية لإثبات نظريتي، ولو استطعنا فعل هذا سنبرئ رنا وأشرف هذا الذي حكيتِ لي عنه.

يقطع صلاح كلامه ويقول إزاء شرود ناردين: اسمعيني جيدًا.. أعلم فيم تفكرين، أنا أفكر في الشيء ذاته، مقتل نجوى يؤرقني كأنه خطئي.

- لكنه لم يكن خطؤك، في الوقت ذاته موت مدحت وفتحي وهذا السائق، آه.. أنا حتى لا أستطيع تذكر أسمه.

تدمع عينا ناردين قبل أن تردف: موتهم على عاتقي أنا.

يهز صلاح رأسه قبل أن يقول: وموت كامل وعائلة أشرف على عاتقنا أيضًا؟ ناردين.. أحدهم يعبث ويدمر ويحرك الجميع كدمى المسرح في عرض هزلي وشرير للغاية، وهو المسئول عن كل ما يحدث، ليس نحن، لكني أؤكد لك...

تنظر إليه ناردين وهو يكمل: سوف نوقفه.

لوهلة تساءلت ناردين بينها وبين نفسها عن السبب الذي يدفع بها هي وصلاح للتدخل فيما لا يعينهما ومحاولة التصرف بهذا الشكل، هل لأنهما وحيدان بلا حياة؟ أم لأن تلك هي طبيعتهما؟ هما ليسا مغامرين ومحققين في رواية خيالية، هذا هو الواقع، لكنهما لا يتصرفان بشكل واقعي في واقعهما، نعم.. هي طبيعتهما.. ولهذا هما أصدقاء؛ لأنهما مخبولان، تكاد ناردين تبتسم لأفكارها، لكن ذكرى الجثث في الفيلا توقفها

وكأنما الابتسام سيشعرها بتأنيب ضمير، سوف تحيا لفترة طويلة مع كوابيس عدة بعد ما رأته.

- ناردين.. أنا بحاجة لأن تتوقفي عن عادتك في الشرود وكثرة التفكير، وتركزي معي لدقيقة.

- أنا معك.

- نظريتي هي الآتي، أنا لا أعتقد أن تلك الشقة تجذب الشرور، ولا أعتقد أنها جذبت القرين والبعبع، أنا أعتقد أننا قد واجهنا قاطني الشقة ٢٠٧ بالفعل، مريم والرجل والفتى، لقد كانوا يحيون في الشقة المهجورة، بإمكاني تخيل مريم توقع أشرف في حبائلها وهو غير مدرك أن عشيقته تحيا معه في نفس البناية في شقة غفل عنها الزمن، أعلم أن هناك دومًا احتمالية أن يقابلها صدفة، ولكن هذا لو كانت جارة طبيعية تمارس روتين الحياة مثلها مثل الجميع، لكن الحقيقة أنها مختلة، أعتقد أن الفتى كان أخاها والرجل أباها، أعتقد أن عائلة من السفاحين كانت تحيا في تلك الشقة، ولسبب ما يمارسون تلك الألاعيب، يقتلون عائلة أشرف ليتهم هو بالجريمة، شقتهم فوق شقة رنا، ألا ترين أن هذا هو أهم دليل؟ ينسل أحد من الشقة ليراقب رنا نائمة جوار زوجها، كأنه يجب عليهم التقرب من ضحاياهم أولا قبل الجريمة، مع أشرف تتقرب منه مريم لأعوام، أعتقد أن تلك المدة الزمنية لها دلالة ما، لكني لم أعرفها بعد، بعدها يتقربون من رنا وكامل عن طريق مراقبتهما وهما غافلان، ربما كان أحدهم دومًا يحيا في الشقة مع العروسين غير المدركين لتلك الحقيقة المروعة، لوجود زائر ليلي في الشقة معهما، أنت رأيتِ الأقنعة على وجوههم، تلك التي أخافوا بها نجوى، أقنعة محكمة الصنع، أعتقد أن أحدهم -بعدما قتل كامل- كان يرتدي قناعًا مماثلاً لوجهه، رنا مضطربة وخائفة وفي حالة صدمة، ولا أعتقد أنها ميزت من هو الحقيقي ومن الوهم في تلك اللحظة، واختلط عليها الأمر وصدقت أن هذا هو قرين زوجها، لا أعتقد أنها بحثت بالصدفة عن القرين، أحدهم دس الفكرة في عقلها، مثل فكرة البعبع، ابن أشرف كان يقول له إن البعبع يختبئ في غرفته، ألا ترين؟ لقد كانوا يتسللون لشقة

أشرف أيضا ويراه الصغير، كيف؟ لا أعلم كيف، ربما من الشرفة أو من أنفاق في الجدران، بالله عليك أعلم أن هناك ثغرات عديدة في تلك النظرية، لكن واكبيها معي للنهاية، هم يقتلون، ولسبب ما يجب أن يكون هناك كبش فداء لجرائمهم ويهدر دمه ظلمًا، لا أعرف دافعهم لهذا العبث، لكن.. آه.. تلك هي نظريتي على أية حال.

تنظر له ناردين بثبات، يرفع صلاح حاجبه قبل أن يقول: حسنا.. قولي شيئًا.

تعتدل ناردين بقوة متجاهلة الألم في صدرها وتقول مسرعة: هم يقتلون، ولسبب ما يجب أن يكون هناك كبش فداء يدفع ثمن جرائمهم، أنا حمقاء، لقد كان الأمر واضحًا منذ البداية، أنت قد أضأت عقلي عندما قلت هذا، كل ما كان علينا فعله هو استعراض الحقائق والتفكير فحسب، نعم نعم.. هم يقتلون ولا بد أن يكون هناك كبش فداء، في الآن ذاته، في الآن ذاته لم ينبسوا بحرف، أليس كذلك؟ بلى.. بلى.. لم يتحدثوا، أتعلم لماذا؟ لأنهم قد قطعوا نذير الصمت، أتعلم من يأخذ على نفسه عهد الصمت، ويقتل بوحشية ملفقًا جرائمه للأبرياء لكي يدفعوا حياتهم ثمنًا لجرم لم يرتكبوه؟ أتعلم من الذي ينشر الأساطير والخوف من حوله؟

بتردد يجيبها صلاح: ا.. الشيطان؟

- كلا.. كلا.. ليس الشيطان.. المهرطقون يا صلاح.

- ماذا؟

- عبدة الشيطان.

- ناردين.. نحن لسنا في القرون الوسطى وهذا ليس عصر حرق الساحرات، لم يعد أحد يستخدم كلمة «مهرطقون».

- أنت لا تفهم.. أنا قرأت عن هذا كثيرًا، كل ما يحدث هو ببساطة طقوس سحر أسود.

- أنت تحاولين إقناعي بأن جماعة من عبدة الشيطان يرتكبون تلك الجرائم، لماذا؟

- أنت قلتها.. كبش الفداء.. هذا جزء من الطقوس، تقديم القرابين.. طاقة الحزن والظلم والفساد والشر تلك قادرة على استدعائه.

- استدعاء من بالله عليك؟

- البعبع.. القرين.. سمّه كما تريد، الأسطورة تتحدث عن هذا الكيان القديم الذي يهيم فسادًا في الأرض ويعد من يتبعه بالخلود، لكي تحييه عليك القتل، وعليك تقديم القرابين بدماء الأبرياء من أقارب القتيل، مثل أخي رنا ووالدتها، مثل أشرف ورنا نفسها، مثل نجوى وخادمتها، دماء كامل وعائلة أشرف لم تكن كافية.

ولكي يتم إحياؤه لا بد أن تستيقظ الأساطير في عقول الأحياء، تعتقد نجوى أن أبناءها قد عادوا للحياة، لهذا كانوا يرتدون الأقنعة، لهذا يعتقد أشرف أن البعبع قتل عائلته وتؤمن رنا بالقرين، في عصرنا هذا لم يعد الكثيرون يؤمنون به، كل ما يحدث هو طقوس وقرابين من عبدة الشيطان لاستقطاب قدومه.. البعبع.

ينظر صلاح لناردين بنوع من خيبة الأمل فتهتف هي:

- لم أقل إنه سيقدم حقا، لكني قدمت لك تفسيرًا لدوافع هؤلاء القتلة، هم يؤمنون بهذا، هذا يجعلهم مخابيل، لكنهم يؤمنون بهذا، صدقني أنا واثقة مما أقول، عندما يقطع أحدهم نذير الصمت ويقتل وتهدر دماء الأبرياء وتفتت العائلات يأتي هو، لم تقل الأسطورة أبدًا من هو، لكن ما قلته لك هو اقتباس حقيقي من كتاب النيكرومانسي.

لتحميل المزيد من الكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة ادخل على جوجل واكتب فى خانة البحث مكتبة بيت الحصريات

يومئ صلاح برأسه بتردد قبل أن يقول: حسنا.. لقد فتكنا بثلاثة منهم،

ومتبقٍ قائدهم.. الرابع.. ويتبقى السؤال الأهم..

- كيف نثبت براءة رنا وأشرف؟

تنظر ناردين نظرة لصلاح فهمها الأخير جيدًا فصاح معترضًا: حالتك لن تسمح لك أبدًا بالذهاب للشقة ٢٠٧ الآن يا ناردين.

تعتدل ناردين وعلى وجهها تعبير صامت فيطلق صلاح سبة، لا فائدة من الجدل مع ناردين الصباغ، هو من دون الناس أجمعهم يعلم تلك الحقيقة جيدًا.

***

الفصل العاشر

يقف هشام أمام البناية وينظر في ساعته، الثانية والنصف صباحًا، ينظر للبنايات المستريحة من خلفه، الشوارع شبه الخالية، إنه الليل، ولطالما افتتن هشام بالليل، من بعيد تتراءى له أضواء سيارة تقترب، لا بد أن تلك هي ناردين ومعها صلاح، لقد اتصلت به لتخبره أنها قادمة الآن وأنها بصدد اقتحام الشقة ٢٠٧، أخبرته أن دليل براءة رنا هناك، وحكت له ما حدث في فيلا نجوى، جعلته يقسم ألا يلجأ للشرطة الآن، كان يشاهد التلفاز عندما اتصلت به، الأخبار كلها تتحدث عن الجريمة المروعة في فيلا نجوى الشربيني، والجثث التي تم اكتشافها على الطريق الخاص المؤدي للفيلا النائية عن المدينة، وذهب بعض الإعلاميين المشاهير لتغطية الحدث بأنفسهم، وربط بعضهم بين مقتل نجوى ومقتل ابنها منذ أعوام، وتم طرح بعض التساؤلات بخصوص رنا، وهل كون استمرار القتل مؤشرًا على براءتها أم لا، ولكن القضاء قد أدانها بالفعل، ولذا لم يتطرق الإعلاميون لتلك التفصيلة باستفاضة، يتنهد هشام، يترجل صلاح وناردين من السيارة وينقدان السائق الأجرة قبل أن يسيرا تجاهه، ينظر هو لصلاح، تشير ناردين إليه قبل أن تقول: لا داعي للكلفة، نحن بصدد اقتحام شقة في منتصف الليل بعد كل شيء، صلاح.. هذا هو هشام.

يوميء الاثنان لبعضهما، تقول ناردين: نحن بحاجة إليك كي ندخل معك البناية دون إثارة شبهات، معنا الأدوات الملائمة، سيعالج صلاح قفل الباب وندخل الشقة، لا حاجة بك لدخولها معنا لو لم ترد هذا.

يبتلع هشام ريقه قبل أن يقول بارتباك: سـ... سوف آتي معكما.

تومئ له ناردين برأسها، ويدلف الثلاثة للبناية، ومن بعيد تنظر إليهم بومة مستندة على إحدى الأشجار في صمت.

***

في المصعد يتفحص صلاح هشام باهتمام، ويلاحظ هشام نظراته فيحمرّ وجهه خجلا ويتلعثم بشيء ما لم يتبينه صلاح، ينظر الأخير لناردين نظرة من طراز: هو حقا انطوائي بشدة.

فتعطيه نظرة من طراز: ومولع بجارته لا تنس.

يصل المصعد للطابق السابع، يخرج الثلاثة آملين ألا يخرج لهم أحد الجيران المتشككين، لقد حالفهم الحظ أن حارس العقار كان يغط في النوم، يقودهم هشام للشقة وهو يقول: لماذا لا نتصل بالشرطة؟

- ببساطة لن يصدق أحد ادعاءاتنا دون دليل.

وتضيف ناردين في تردد: كما أننا نحن أيضًا بحاجة لدليل للتأكد من صحة نظريتنا.

يهز هشام رأسه في غير اقتناع، ويقترب صلاح من الباب وهو يخرج مفتاحًا حديديًا ضخمًا، ويقول لهما وهو يعالج قفل الباب: راقبا الطريق، لا أعلم ما الفائدة في الحقيقة من مراقبة الطريق، سينكشف أمرنا في ثانية لو مر أحدهم بالصدفة، لكن راقبا الطريق على أية حال؛ لأن هذا يشعرني بالأمان نوعًا ما، تلك العادة الصبيانية، عندما تفعل شيئًا خاطئًا تأكد من وجود شركاء معك، آه.. ولا تسألاني أين تعلمت معالجة الأقفال، لم أكن هجّام بيوت أو لصًا لا تقلقا، لكن العمل كمحقق خاص يعلمك الكثير، الأمر

ليس بالسهولة التي تربانها في الأفلام، معالجة القفل قد تستهلك الكثير من الوقت كما تعلمان و..

يتبادل هشام نظرة متسائلة مع ناردين بينما صلاح يواصل الثرثرة، قبل أن يلتفت إليهما الأخير ويقول: آه.. أنا أعالج توتري بالحديث لو لم تفهموا هذا.

قبل أن يدير المقبض وينفتح الباب، داعيًا إياهما للدخول للشقة ٢٠٧.

***

بعض الأماكن تمتلك شخصية قوية، والشقة ٢٠٧ امتلكت شخصية كاسحة، كل قطعة أثاث بها تروي لك حكاية ما، كل ركن في الجدران يرمقك بصمت، بدا لهم وكأن الهواء نفسه رائحته مختلفة بالداخل، لم تعلم ناردين إن كان هذا هو تأثير كل هذا الغموض المحيط بالشقة، إن كان هو الذي أعطاها تلك الهالة المقبضة، أم أنها حقا مكان مختلف، كانوا يشعرون كأنهم قد دلفوا لبُعدٍ آخر، هناك شموع في كل صوب، ولوح مغطاة بالقماش على الجدران، الحائط متآكل وقد سقط الكثير من السقف، الأثاث متهالك، الصالة تقبع أمام الباب، جوارها ردهة في أولها دورة المياه وفي نهايتها غرفة النوم، تتوسط الردهة غرفة أخرى، وعلى حافة الصالة ترقد الشرفة بدلال وخبث، هناك نافذتان؛ واحدة في الصالة والأخرى في غرفة النوم، الشموع تنير المكان وسط ظلامه وتقول لهم بوضوح إن الشقة ليست مهجورة، ترتجف ناردين وهي تتخيل رنا في الشقة السفلية، تسمع أحدهم يتحرك ويعدو ويحرك الموجودات في الشقة، أي هول يكمن هنا؟ هل ستجد تفسيرًا لكل هذا الغموض الآن؟ يوارب صلاح الباب ويسير جوار ناردين، تدور عينا هشام بالمكان، قبل أن يهمس لهما:

- أنتما تعتقدان حقا أن عبدة الشيطان كانوا يقيمون في تلك الشقة؟

تومئ له ناردين برأسها دون أن تستدير له، فيضيف بتلعثم: طيلة عمري أكره في أفلام الرعب عندما يختار البطل توقيت الليل لزيارة بيت المسخ،

ألم يكن من الأفضل الانتظار للصباح؟

- لم نكن لنجازف باقتحام الشقة في وسط النهار يا هشام.

يهز هشام رأسه، تتجه ناردين للصالة، وينقبض قلبها، أمامها ظل شخص ما، يقف جوارها وينظر إليها .. تلتفت ناردين وتنظر للواقف جوارها، في نفس اللحظة التي يرى فيها صلاح جسدًا ضئيلاً لشخص يقف في الردهة، هناك المزيد من الأتباع إذًا، لكنهم واقفون لا يتحركون كالتماثيل، تهتف ناردين مبهوتة: شمع.. يا إلهي! انظر لهذا المانيكان.

وتلتقط شمعة لتقرب بها من وجه التمثال الواقف جوارها، بينما يفعل صلاح مثلها ويقترب من الواقف في الردهة، أمامه تمثال متقن من الشمع لطفل فارع القامة، يقول صلاح: متحف الشمع.

يسير الثلاثة في الردهة ويمد صلاح يده ويدير مقبض غرفة النوم، مزيحًا شباك العناكب في طريقه، ينفتح الباب مصدرًا صريرًا خافتًا، وتتقدم ناردين حاملة الشمعة للأمام لتنير لهم الطريق، ويتوقف الثلاثة في منتصف الغرفة، على الفراش تمثالان من الشمع لرجل وامرأة متعانقين، تتزايد دقات قلبها وتقول ببطء: كامل ورنا.

- أنا لا أصدق عيني.

- كأننا في لوحة كابوسية.

يلتفت الثلاثة ويخرجون من الغرفة، يد هشام ترتجف ويتصبب عرقًا، يبتلع ريقه ويترنح فيهمس له صلاح: لا تفقد وعيك الآن.

قبل أن يتابع محدثًا ناردين: وحاولي أن تخفضي صوتك قليلا.

- صلاح.. لقد صدرت أصوات نقل أثاث وجلبة من الشقة لعقود ولم يهتم أحد، لا أعتقد أن صوتي العالي هو الذي سيجذب لنا الجيران الآن.

يصل الثلاثة للغرفة في منتصف الردهة، بابها موارب، يدفع صلاح الباب قبل أن يتراجع للخلف غاضبًا ويهتف هو تلك المرة: يا إلهي!

داخل الغرفة هناك منضدة طعام يتراص حولها تمثال لنجوى وهي تجلس مع زوجها وابنها الآخر، وأمامهم أطباق من الطعام المتعفن الممتلئ بالديدان.

مبهوره تقول ناردين: نحن في بيت الرعب، يا إلهي! ما كان لرنا أن تتخيل أن هناك تماثيل شمع لها ولزوجها في الشقة الأعلى منهما.

يخرج الثلاثة ببطء من الغرفة وعيونهم تتفحص تفاصيلها، وقبل أن يعودوا للصالة تشير إليهم ناردين قبل أن تقول: انتظروا.

وتسير بإعياء محاولةً تجاهل آلام ذراعها وصدرها، وتفتح باب دورة المياه، وراءها يقف صلاح ويمد رأسه قبل أن يقول: على الأقل دورة المياه عادية.

- انظر.

تشير لركن الحائط، ركن مهشم تمامًا وبه فتحة ضخمة.. يدخل صلاح وينحني ليتفحص الفتحة قبل أن يمد يده للداخل، يخرج فأر ضخم من الفتحة فيجفل صلاح وتصرخ ناردين مذعورة، يهتف صلاح في حنق: تماثيل شمع لموتى وقتل وعبدة شياطين، وأنتِ تصرخين من أجل فأر؟!

يهز صلاح رأسه قبل أن يمد رأسه ويدخل بجسده داخل الفتحة.

- ما الذي تفعله؟

- أحاول تبين إن كنت أستطيع الولوج أم لا، آه رائع.. لقد صنعوا نفقًا يتحركون من خلاله، هكذا كانوا ينسلون للشقق الأخرى.

- أيمكن حقا فعل شيء كهذا؟

- يتطلب الأمر الكثير من المثابرة واستغلال ضوضاء العالم الخارجي للتغطية على صوت الحفر، ولكن نعم من الممكن فعله، لقد فعلها الحلفاء في الحرب العالمية الثانية من قبل.

يخرج صلاح من الحفرة ويلتفت إلى ناردين، قبل أن يتساءل: أين

هشام؟

تتلفت ناردين وراءها في توجس قبل أن تقول: لا أعلم.

يسير صلاح للأمام ويقول لها: ابقي بالقرب مني.

يخرج الاثنان للصالة، ويتلفتان بحثا عن هشام، يدخلان الغرف مرة أخرى ويتفحصان المطبخ قبل أن يذهبا للشرفة، هناك على الأرضية وجدا تمثالاً لأشرف الغندوري، تمثال طري مقارب جدًا للحقيقة يمثل جثة أشرف، وجواره تمثال لهشام شاخص البصر في السماء، تغمغم ناردين: يا إلهي!

يتلفت صلاح حوله قبل أن يقول: أعتقد أن تلك دلائل كافية، لنخرج من هنا ونطلب الشرطة ونخبرهم بكل شيء.

- وماذا عن هشام؟

- إما أنه أصيب بالفزع وهرب، أو أن أحدًا ما معنا هنا قد اقتنصه، تمثاله هنا معهم وهذا يعني أنه هو الآخر ضحية مستهدفة، لنخرج من هنا يا ناردين.

تهز ناردين رأسها وهي تتذكر ارتباكه وتلعثمه، هذا الرجل الوحيد الذي لا يهتم أحد لشأنه، لن تتركه في هذا الكابوس، يعض صلاح على شفتيه قبل أن يقول: ناردين بالله عليك.

- لنبحث عنه مرة فحسب.

يقف الاثنان قبالة بعضهما البعض وهما يتحدثان، ولا يرى أي منهما التمثال الذي تحرك من الشرفة واعتدل واقفًا عاكسًا ظلاً ضخمًا على حائط الصالة.

- حسنًا لنبحث عنه.

يذهب الاثنان معًا للبحث مرة أخرى، بينما يدخل التمثال من الشرفة تابعًا إياهما، وقد حمل بين يديه بلطة ضخمة، يقف الاثنان في الردهة وهما

يختاران أي غرفة يدخلان أولا.

- اجثوا على أقدامكما الآن.

يأتيهما الصوت من الخلف ويتصلب الاثنان، يتابع هشام وهو يرفع البلطة لأعلى:

- اجثوا على أقدامكما الآن وإلا قطعت رأسيكما.

لم يكن هناك أثر للتوتر ولا للارتباك في صوته تلك المرة، لم يعد هناك داعٍ للتمثيل، لقد تظاهر بأنه تمثال بنفس جودة تظاهره بالارتباك والتلعثم، لم يكن الخجل تظاهرًا على أية حال، هو حقا شخصية خجول وغير اجتماعي، لكنه لم يكن من النوع المرتبك.

تغمض ناردين عينيها.

***

هتشكوك قد حذر كثيرًا من الأشخاص الودودين أكثر من اللازم، يهتف صلاح: أيها الوغد اللعين.

- أنا أفضل وغد عبقري، والآن اجثُ على ركبتك، أو قدمك، فقط اجثُ وإلا قطعت رأس حبيبتك.

يجثو صلاح ومثله تفعل ناردين.

- لماذا ستقتلنا الآن بعدما لجأت إلينا منذ البداية؟

- لماذا؟ دومًا تبحثون عن الدافع، تبًا لكم ولفضولكم، سوف تموتان دون أن تعرفا الحقيقة أبدًا.

يرفع هشام البلطة عاليًا في نفس اللحظة التي يدفع فيها صلاح ناردين جانبًا ويندفع للخلف بسرعة جنونية ويحتضن هشام ليسقط الاثنان أرضًا، يقبض صلاح على يد هشام القابضة على البلطة ويلكمه في وجهه، يعض هشام صلاح في أذنه ويقضم جزءًا منها، يصرخ صلاح ألما وهو يتراجع

للخلف، ويمسك هشام البلطة ويستعد ليرميها صوب صلاح، في نفس اللحظة التي تحمل فيها ناردين التلفاز وترفعه عاليًا قبل أن تهوي به على رأس هشام، يسقط التلفاز الضخم ليبتلع رأس هشام، وينتفض جسد الأخير وتتحرك قدمه في جنون، قبل أن تهمد حركته تمامًا بعدما يحز زجاج الشاشة المهشم عنقه، ببطء ونعومه تنساب دماء هشام من أسفل التلفاز، يغمغم صلاح وهو ينظر إليه: الكثير من التلفاز حقا يفسد العقل.

قبل أن يرفع رأسه وينظر لناردين دامعة العينين تقف وترتجف، يتنهد صلاح ويقف ليضع ذراعه على كتفها ويقول: لقد انقذتِ حياتي، والآن لنخرج من هنا.

تزيح ناردين ذراع صلاح وتتجه نحو الأريكة وتلتقط وريقات صفراء ملقى بجوارها قلم ريشة، تنظر ناردين في الوريقات قبل أن تقول: صلاح.

- نعم؟!

- لقد وجدت مذكراته.

يقترب صلاح من إحدى اللوحات المغطاة بالقماش ويعريها قائلا: يجب أن أعرف ما الذي يقبع أسفل هذا القماش.

أمامه على اللوحة استقرت رسمة لسفينة من العصور القديمة، سفينة تهيم في البحر وسط الضباب.

***

صفحات من مذكرات هشام القصبجي:

«لقد تمدن الإنسان كثيرًا، نحن نحيا في عالم بلا خيال ولا إبداع، اندثرت حكايات الأجداد ولم يعد أحد يستمع لحكايات الأسلاف حول النيران في قلب الصحراء، أصبح البشر جميعًا كالآلات غايتهم الوحيدة جمع الأموال والتظاهر بأنهم مثل الآخرين في مجتمعهم، أصبحت المادة هي الأساس لكل شيء، ولكن كل حين وآخر يحدث شيء ما يجعلك تتساءل: أين

اختفت عروس الإسكندرية في السبعينيات؟ هل كانت ريا وسكينة سفاحتين حقا أم مناضلتين ضد الاحتلال الإنجليزي؟ ما هو سر كوابيس قصر البارون؟ الإجابة بسيطة للغاية يا سادة.

في القِدم كانوا يقدمون القرابين للأصنام وهم يرقصون عراة حول النيران، ويحرقون الساحرات، الآن تحول الأمر لعلم النفس والتفسيرات الحضارية، الحقيقة ثابتة ولم تتغير، اللاوعي البشري.. هذا الجزء المسئول عن الظلام بداخلنا، تلك هي الإجابة، لقد نشأت لأجد والدي ملحدًا، وأختي وأخي كذلك، كنا دومًا عائلة... ما هي الكلمة؟ عائلة مختلفة، البشر العاديون سيقولون إننا عائلة مضطربة، لكننا بكل بساطة مختلفون، والإنسان يهاب ما لا يفهمه، منذ خروج رجل الكهف ورميه للأحجار صوب القمر عند رؤيته للمرة الأولى، نعم نحن نخاف ما لا نفهمه، وأنتم ستخافونني، أبي كان يشرب كثيرًا، كلا لم يكن يشرب الخمر، كان يشرب الدماء، دماء كل تلك الحيوانات التي كان يحضرها لبيتنا القديم في شبرا قبل أن ننتقل، وكان يستحم عاريًا في تلك الدماء، ويجعلنا نفعل نفس الشيء، ثم يحكي لنا عن الأسلاف، وعن الروطاش.

العامة يلقبون الروطاش بالبعبع والقرين وأسماء عدة، لكن هذا هو اسمه الحقيقي، هو الروطاش، سيد الظلام والموت، أبي أخبرنا أن جده نقل له أسرار الروطاش عبر كتاب النيكرومانسي، كتاب أسرار الموتى، في السحر الأسود الذي تعملته من أبي.

يجب على النيكرومانسي التهام أجساد الموتى لمعرفة أسرارهم قبل أن يكتبها في الكتاب، هذا الكتاب يحمل أسرار التاريخ بأكمله، ولكن عليك أن تصدق في البداية قبل أن تقرأ، وأنا آمنت وصدقت.. وقرأت.. وعندما أخذ أبي وإخوتي نذير الصمت أصبحت أنا القائد لهم، ليس فقط لأني الوحيد القادر على الكلام الآن، ولكن لأني الأذكى والأشجع؛ فبعد كل شيء أنا الذي قتلت أمي عندما لم توافِ أحدًا منهم الجسارة لفعل هذا، قدمتها قربانًا للروطاش، وأصبحت آخر بعدها، كأن جزءًا منه أصبح بداخلي، شعرت بأني.. حر.. وللمرة الأولى في حياتي، شعرت بأني سعيد، لاستدعاء

الروطاش عليك سفك دماء الأبرياء وتدمير أسرهم، كلما اشتدت طاقة الحزن ازدادت قوته، ولكن أختي فشلت في مهمتها، قضت أعوامًا تحاول التلاعب بعقل أشرف الغندوري ليقتل أسرته، حينئذ كان سيتمثل لنا الروطاش في هيئة أشرف ويقودنا للخلود، لكنه لم يفعلها، وهكذا كان علينا التدخل، فتكنا بأسرته ولفقنا له التهمة، ثم رأيت أوثيليا، جارتي التي وقعت في حبها، لطالما عشقت الانسلال لشقتها ومراقبتها وهي نائمة كالملائكة، أحيانا كنت أجسر على الاقتراب، وقبل أن نقتل زوجها ألهمتها أنا بفكرة القرين وجعلتها تعتقد أنها صاحبة الاكتشاف، ومثلها مثل أشرف آمنت هي بالمجهول، بالروطاش، ولشدة ما كان أخي موهوبًا عندما ارتدي قناع زوجها الشمعي وتظاهر بأنه هو في الليلة الأخيرة و لم تستطع هي تمييز أنه ليس زوجها بسبب وهنها، تلك هي قوة الخوف القادرة على استدعاء الروطاش وبعدما قتلنا أخاها وظللنا نخيف والدتها حتى توقف قلبها، لم يبق أمامنا سوى والدة الزوج، لكني بشر، وقد أحببت أوثيليا، أردتها لي، لا تحكم عليّ كثيرًا أيها الروطاش العظيم، الحب قد أودى بعقل قيصر من قبلي، فلا تكن قاسيًا في الحكم عليّ، أردتها لي وطلبت مساعدة تلك الكاتبة والمحقق ليثبتا براءتها، كان الأمر ممتعًا، التحقيق معهما في جريمة أنا مرتكبها، لم يكونا ليمثلا خطرًا حقيقًا بالنسبة لي في كل حال، فأنا في حماية الروطاش العظيم، لقد قدّمنا القرابين، ولا يوجد أمامنا الآن سوى انتظار قدومه، هذا الذي يعيش بين الظلال، لقد تلاعبنا بهم ونشرنا الخوف في قلوبهم وأيقظنا الجزء المسئول عن التصديق في عقولهم قبل أن نقتلهم، وهذا هو قربانك يا سيد الظلام.

جزء حديث من مذكرات هشام القصبجي:

لقد قتلوا عائلتي، تلك الكاتبة والمحقق، أنا وحيد الآن، أتذكر ضحكات أختي وأخي وهما يصنعان تماثيل الشمع، ونظرات والدي الفخورة تجاهنا، نحن موهوبون بحق، تلك التماثيل والأقنعة متقنة الصنع، لم يقدّر أحد موهبة والدي التي ورّثها إلينا عندما طردوه من المسرح واتهموه بأنه مخرج مخبول، لكنه كان يخرج مسرحيته الأخيرة وأنا كنت بطلها،

مسرحية الروطاش، وها أنا ذا الآن أجلس باكيًا، في شقتي الوضيعة التي أخذتها كواجهة لبيتنا الحقيقي في نفس البناية، لقد قتلوا عائلتي، بعدما صنعنا كل تماثيل الشمع لضحايانا لنهبهم الخلود بعد موتهم، والآن.. تلك الكاتبة اللعينة، إن انتقامي سيكون مهولا، ولكن بعد أن يثبتوا براءة أوثيليا ويأتوا بها إليّ، إلى ذلك الحين سوف أبقيهم على قيد الحياة وأحاول التغلب على هذا الهاجس الغاضب بداخلي الذي يدعوني مرارًا وتكرارًا لقتلهم.

***

يرفع وكيل النيابة عينيه عن الأوراق، يسود الصمت في مكتبة قبل أن يقول لصلاح وناردين: ولم يستطع التغلب على هذا الهاجس في نهاية الأمر.

قبل أن يتنهد ويضيف: حسنا.. لقد أقر الخبير أن هذا هو خط هشام، لقد قارنًا خطّه بخط بعض مقالاته وقصصه القصيرة التي كان يرسلها لدار النشر الخاصة به، من حسن الحظ أنه كان يستخدم الأوراق في الكتابة وليس حاسبًا آليًا.

قبل أن ينظر وكيل النيابة نظرة ذات معنى لناردين ويضيف: أراهنك على أن كتبه ستصبح الأكثر مبيعًا الآن، إثر شهرته بعد وفاته.

يجيبانه بالصمت، فينظر إليهما قبل أن يعقد يديه ويقول: أنا أعتذر عما واجهتماه من مصاعب في التحقيق الفترة السابقة، والفترة التي قضيتماها على ذمة التحقيق، لكنكما تعلمان جيدًا الإجراءات، بإمكانكما الذهاب.

- وماذا عن أشرف الغندوري ورنا؟

يبتسم وكيل النيابة قبل أن يقول: قليل من الروتينيات لحين إطلاق سراحهما، ولكن اطمئنا.. لقد تمت تبرئتهما بالفعل، لو كنت مكانكما لابتعدت عن الأضواء الفترة القادمة، الإعلام ومواقع التواصل الاجتماعي والرأي

العام شغله الشاغل تلك القضية، عناوين كثيرة في الأخبار، كاتبة رعب وعبدة شياطين، كوابيس هشام، العنوان الأخير يبدو كعنوان مبتذل للغاية لو أردتِ رأيي.

تهز ناردين رأسها قبل أن تقول: كوابيس القصبجي به تناغم أكثر.

ينظر إليها صلاح قبل أن يغمغم: لا فائدة أبدًا.

***

تنعكس الشمس على وجه رنا وهي تقف في الشارع تحاول مقاومة الارتجافة في جسدها، ومن ورائها بوابة المصحة الخاصة بالسجن، يقف قبالتها ناردين وصلاح ومن خلفهما سيارة بها خالة رنا التي أتت لتستقبلها، تنظر إليهم رنا بشرود قبل أن تقول وهي تشير لخالتها الباكية: خالتي كانت الوحيدة المؤمنة ببراءتي، هي وهذا الـ...

وتضيف كأنها تبصق: المسخ.

قبل أن ترتجف وتقاوم دموعها وهي تقول لهم: لقد زارني في المصحة، يا إلهي! لا أصدق أني تحدثت معه.

تنظر ناردين طويلا لرنا قبل أن تقول في تعاطف: أمامك مشوار طويل، عليك أن تكوني مقاتلة كي تنجي مما حدث لك، لا تستسلمي لحزنك، هذا هو أقسى عدو.. الاكتئاب.. هذا الشيء القابع بعقلك ومصمم على تمزيق روحك، سيقودك للعزلة والجنون والشك في كل من حولك، الشك حتى في نفسك، عليك أن تقاوميه، أنت فقدتِ الكثير لكنك بشكل ما لم تفقدي كل شيء.. آه.. تبًا.. ربما أنت فقدتِ كل شيء، وكذلك نحن في فترة أو أخرى، لكنا علينا المواصلة، عليك أن تجدي طريقك، أنت حرة الآن.. حياتك أمامك.. وكل أحبائك الذين رحلوا، ذكراهم على عاتقك، اعتني بذكراهم ولا تستلمي.

فور أن تنهي ناردين كلامها تقترب من رنا وتحتضنها بقوة ويرفع صلاح حاجبيه في دهشة، بعدما ترحل رنا مع خالتها يقول صلاح لناردين: لم أركِ

تحتضنين غرباء من قبل، هل جعلتك تلك القضية شخصًا اجتماعيًا وودودًا الآن؟

- تبًا لك.

يضحك صلاح قبل أن يقول: لقد انتهت القضية يا ناردين.

- أعلم هذا.. أنا فقط.. ما فعله هشام.. كل هذا الشر..

- لقد كان مريضًا نفسيًا، وقد تعرض لطفولة بشعة وغسيل دماغ من قبل والده، لقد أجبره على قتل والدته وهو مراهق يا ناردين، والد هشام هو أصل كل تلك الشرور في العائلة، ممثل مسرحي عبقري يلجأ لخيالاته ويحيا في وهم مع عائلته، ويعبدون قوى الشر ليعوض فشله في حياته، .. هذا هو الأمر باختصار، جزء من هشام كان بشريًا بعد كل شيء، وهذا الجزء قد أحب رنا.

تهز ناردين رأسها وتقول: لنذهب ونتناول الكثير من الطعام بالخارج ونتناسى ما حدث.

- تبدو لي كخطة محكمة يا صغيرتي.

- لا تدعوني بصغيرتي من فضلك، أنا لست بصغيرة أحد.

- تبدين كطفلة دومًا عندما تلوّحين بأصبعك مهددةً هكذا.

- تبًا لك.

- أتعلم؟ حارس العقار في البناية قد حكى لي شيئا ما عن رجل عض التراب كان يحيا في تلك البناية، ألا يذكرك هذا الوصف بالشائعات عن الرجل الذي يحيا بين الأنفاق؟

- آه.. بالله عليك ليس أسطورة أخرى، ليس هذا التوقيت المناسب لتلك الخيالات.

- ربما علينا أن نبحث عنه يومًا ما.

- بعد أن نأكل يا صغيرتي.. بعد أن نأكل..

***

بعد انتهاء اليوم تعود ناردين لشقتها، تقف أمام اسطوانات الموسيقى وتشغل بعض الموسيقى الحاصة ببراين نيلز، قبل ان تلتقط رواية وتستلقي على الأريكة، بعد برهة تتجه لاحتها الكاتبة العتيقة وتبدأ بالكتابة، تخط عنوان روايتها الجديدة: الأشياء التي تحدث ليلا.

ترفع رأسها وتنظر للأريكة، أمامها يجلس مدحت وفتحي وسائق الأوبر، تتنهد ناردين متجاهلة الألم بداخلها قبل أن تقول محدثة خيالاتها: سامحوني.

وتواصل الكتابة.

يغسل صلاح وجهه وينظر لانعكاس وجهه في المرآة قبل أن يقول بسخرية محدثا البانيو في الخلفية: أنا قادم إليك أيها الوغد العجوز.

ويذهب للبحث عن لوح الشطرنج، وبينما هو يفعل هذا يمر أمام التلفاز ويرى مذيعة تتحدث بينما صورة نجوى في الخلفية، صلاح أمام التلفاز يقول محدثا الصورة: أنا آسف.

يظل واقفا لبرهة قبل أن يلتقط لوح الشطرنج ويذهب للبانيو.

***

المكان: السجن طرة.

التوقيت: الثالثة عصرا.

اليوم: الثالث عشر من يونيو.

يسير أشرف الغندوري للأمام وتنغلق بوابة السجن من خلفه، يضع كلتا يديه في جيبه ويقف لفترة من الزمن وهو يتلفت حوله ببطء.

***

لم يكن أحد ليصدق شهادة المتشرد العجوز على اية حال، لم يكن أحد ليصدق وصفه لما راه تلك الليلة عندما انقلبت السيارة.

***

حسب التعاويذ كان من المفترض أن يحل الروطاش في هيئة أشرف، لكن هذا لم يحدث أبدا

***

في الشرفة يستقر تمثال شمعي لجثة أشرف، يبدو وكأنه حقيقي للغاية..

***

لقد حان وقت تأجيل الأحلام.. الروطاش قادم من أجلك..

***

يسير أشرف الغندوري للأمام بهدوء ويختفي وسط زحام المارة ..

النهاية